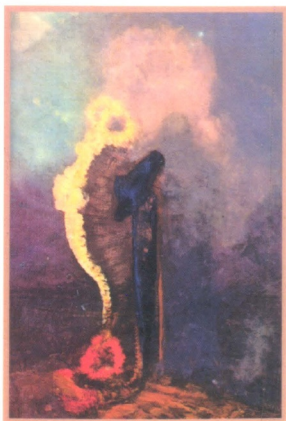


خديجة صبار

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة



أفريقيا الشرق



الإهداء

إلى روح جدي

الذي سافر مبكرا

وبقيت صورة حلقائه الفكرية

موشومة في ذاكرتي

منذ الطفولة

مقدمة

المتأمل للتراث الذي ورثناه عن أسلافنا الذين نحن امتداد طبيعي لهم، بدءا من تخوم العصر الجاهلي في رحاب الصحراء، حيث البنية العرية رغم قساوتها مهد الحب والفروسية والكرم والإقبال على متع الحياة، بجانب الرقة والدمائة... وفي رحلة الزمان والمكان عبر التاريخ، قبل الإسلام وبعده، يقف على نماذج لا يمكن تجاهلها لنساء قويات بارزات الحجة والبيان، إيجابيات في الحياة الخاصة والعامة منتجات فكريا واقتصاديا ورحما... لهن نصيب في صنع الحضارة التي لم تكن في مرحلة من مراحلها متعلقة بالذكور وكن قوة مؤثرة في حياة الشعوب الأكثر استعدادا لقبول أدوارهن. وبفضل هذه الشعوب تمكنا من الوقوف على اللواتي عرفن بالرأي والنفوذ، وتولين الملك والمناصب القيادية، وقبضن على زمام السياسة، وتعاطين شؤون الإدارة... وأخريات جمعن بين شجاعة الجنان وفصاحة اللسان من شواعر وزواجر وكواهن... رموز بمثابة شهادة لعشرات مثلهن حبستهن أسوار الحرم وطورتهن دهاليز قصور الملوك والخلفاء في المدن العرية... وإن حظين بعناية المهتمين فقي عالم الحب أو الشهوة أو أدب العلاقة.

فهل المرأة الزعيمة، الحاكمة النائرة، المناضلة الباحثة، تنتمي للتاريخ الحديث ؟ وإذا كان الجواب بالنفي فلماذا لم تتحدد بعد على الخريطة كشخص له كيان... ؟ رغم أن علاقتها بالعمل السياسي والأدبي والاجتماعي عرفت قبل الإسلام وبعده ؟ !

* فالأنباط كانوا لا يهتدون في إشراك نسايتهم في الحكيم وأنجبت
تدمر " زنوبيا" أو " الزباء " وهي أعظم ملكة عربية عرفها التاريخ.

* وتربعت بلقيس على عرش سبا في عصر نبي الله سليمان،
وحكمت بالشكل الديمقراطي الحديث! وملكيت أخريات في اليمن
وكندة: نجد ضمن ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات ما بين سنة
169 ق. م و 6 م. وفي كندة خمس ملكات منهن العمدة بنت الأعشى
وماوية الغسانية التي حكمت فلسطين وسيناء¹ وتولت ماء السماء بنت
عوف الملك وإليها ينسب ملوك الخير.

ومنهن من تولت مناصب الكهنة مثل عفراء الكاهنة الحميرية، وزبراء
أمة بني رثام وظريفة التي ينسبون إليها التكهن بسيل العرم لأنها رأت أن سد
مأرب سيخرب، وعرافة الحجاز التي احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم
حين هم بذبح ابنه عبد الله فحكمت بفدائه، وكاهنة بني سعد " هذيم"
وكاهنة بني مرة « الغيطلة» التي نسب إليها أنها تنبأت ببعثه النبي (ص)،
ومنهن من لم تكتف بالكهانة بل ادعت النبوة «كسجاح» والتف حولها
جمع كبير من الناس لدهائها.

وفي الصدر الأول للإسلام نجد أم سلمة أول مناضلة تقف أمام
الرسول (ص) تدافع عن حقوق المرأة بالمفهوم الحديث، ونسبية بنت كعب
الأنصارية تحارب في غزوة أحد وتثبت مع القلة من الصحابة وتشهد
معركة اليمامة وتعود منها مبتورة اليد حاملة إثني عشر جرحاً بين طعنة رمح
ووخزة سهم وضربة سيف. وكانت أم قرفة الفزارية زوجة مالك بن خديفة
بن بدر تناوى النبي (ص)، وانتصر عليها مالك بن حارثة وسجنها ثم أمر
بقتلها، انتقاماً منها لكونها هزمت في إحدى المعارك في السنة 6 للهجرة.

1 - د. أحمد الخروفي: المرأة في الشعر الجاهلي ص 533.

أما عائشة - امرأة الحقيقة - فقد تدخلت في السياسة العليا للبلاد، تعرضت لسياسة عثمان بالنقد، ولم تدخر جهداً في تخريض الناس وتأليبهم عليه . وخرجت تقود جيشاً لمواجهة علي بن أبي طالب في معركة الجمل.

- وفاطمة الزهراء بنت محمد (ص) أم الحسن والحسين قامت بعمل سياسي من خلال الاتصالات التي أجرتها مع أشخاص من المهاجرين والأنصار تتعلق برئاسة الدولة بعد وفاة الرسول ، لصالح زوجها علي بن أبي طالب شعوراً منها بظلم أهل البيت ... وعملها هذا يعتبر تعبئة انتخابية بالمفهوم المعاصر!

أما شهرزاد البطة الأسطورية فهي أول قصة غزلت حكاياتها وملأتها أحاسيس عميقة. حكايات رغم بساطتها، تكشف عن عبقرية واجتهاد وبراءة ثقافي... تكلمت بجرأة وروية بكيفية أدهشت الرجال ونسجوا بعدها.

ومن النساء العربيات من تنقلن بين الشام ومصر للأخذ عن كبار المحدثين من العلماء شأن رجال العصر، وأجزن كـ بعض المحدثين والفقهاء... فابن حجر حصل على إجازتين من امرأتين شمس بنت ناصر الدين محمد، وخديجة بنت العماد الصالحية. ومن أجزن للسخاوي أمانة بنت الشمس ورجب ابنة الشهاب، وأم هاني ابنة التقي محمد²، وكثيرات غيرهن شكلن نماذج من التراث الأنثوي النضالي العربي.. لكن مؤرخي العرب القدماء حرصوا كما تقول الدكتورة عائشة بنت الشاطيء على وضع المرأة ومنجزاتها وأثارها في منطقة الظل، والسبب في ذلك هو أن حركة الجمع والتدوين التي بدأت في العصر الأموي وبلغت أوجها في العصر العباسي قد تمت على أيدي رجال آمنوا بعقلية مجتمع كان قد حكم على المرأة بالواد المعنوي بعد أن تم له عزلها عن الحياة العامة في سراديب الحریم.

2- د. أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ص 436/435

ورغم ماوصفت به الخنساء من النباعة في الشعر فبعض مؤرخي الأدب لم يعترفوا بها إلا. رائية نائحة حيث قالوا : ماهي " إلا ندابة"³. وكان الرثاء هو المجال الفسيح الذي أبدعت فيه، وجولة في قصائدها تكشف لنا أنها امرأة تؤمن بقضية ... فالاتجاه العام في تفسير التراث بدءاً بالأساطير التاريخية - كجزء منه، تعبر عن أشواق الإنسان وأمانية وآماله - طمس الصورة الإيجابية المشرقة للمرأة التي تحاول أن تتجاوز قدرها ليرز لنا الوجه الآخر للصورة... وكم هي مخيفة ومرعبة وقائمة !!

فالآراء المناهضة لها استهوت مفسري وفلاسفة الإسلام كأبي حامد الغزالي، وشكلت لنا لسنفوتية توحد بينها وبين الشيطان والحية والخطيئة وتغنوا بها... ذلك أن وظيفة المفسر أو الفيلسوف تقوم أساساً على الحفر في ذاكرة التاريخ بغية الكشف عن الأفكار التي يتركز عليها، ويتمهدونها بالنقد والتحجيص لإخراج معانيها من مركزيتها، فإن صادفت هوى في نفسه عمداً لتأكيداها. والتراث كثافة موروث لا يدل على وجود أساس شرعي إسلامي لهذه النظرية. وقراءة حرة مفتوحة قائمة على الموضوعية والديمقراطية - وإن كانت لاتعجب أصحاب الامتياز - تحيلنا إلى الأدوار الحقيقية الإيجابية المسؤولة التي مارستها المرأة في مسيرتها منذ عقود.

فالقصاص الدينية التي تبدو في ظاهرها تسجيلاً للعيوب وأوجه النقص والعجز في تفكيرها وسلوكها أبرز شاهد يكشف في العمق عن دورها الخلاق في تقدم المعرفة الإنسانية وإبداع الحضارة .. قصة خروج آدام من الجنة ترمز إلى عقلية المرأة، وتفكيرها المتشكك، وبحثها عن الحقيقة، ورغبتها في المعرفة. وهبوط آدام إلى الأرض أولى الخطوات لخلق المجتمع الإنساني، صانع الحضارة التي تدين بوجودها في الجوهر إلى المرأة، الباحثة عن الحقيقة، والشك حافز وأساس الابتكار والإبداع، وحواء أول من مارس

3- عبد الفتاح عبادة، المرأة المصرية والمرأة العربية في التاريخ مطبعة الهلال سنة 1919.

هذا الحق فكانت النتيجة إبداع الحضارة في الكون، فلم لاتكون الإنسانية مدينة لها في هذا المجال ! يقول "أبو حامد الغزالي " من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يصبر، ومن لم يصبر يبقى في مآهات العمى والضلال"

لاجدال أن المرأة العربية اليوم تهتم بقضايا مجتمعتها السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية وتشارك بفعالية في العمل الاجتماعي، وحجم تواجدها في إيقاع الحياة أكبر، وسيرها نحو التحرر والمساواة ملحوظ، لكن عملها النضالي وتواجدها الفعلي لم يمتد بعد إلى جميع المساحات، ولم تتمكن من تأسيس الصلة على قواعد جديدة مع القاعدة العريضة للنساء - نضالها يقتصر على النخبة - و من دخول العمل السياسي (المجالس البلدية والحضرية والجهوية، مجلس النواب ومجلس المستشارين ومختلف دوايب الدولة) من بابه كقوة منظمة ضاغطة في المجتمع .. بل ترضى بولوجها "كضيفة" من كوات معينة بمواصفات وضوابط معينة، وعدد محدود لتجد نفسها في مرحلة الممارسة عاجزة عن الفعل واتخاذ القرار... مما يوضح تعثر حركتها التحررية التي يجب أن تستمد مصداقيتها من خلال قوة نسائية منظمة واعية وضاغطة قادرة على تشكيل الواقع وتنظيمه، بابتكار صيغ حضارية بناءة، عوض الاعتماد على نماذج مستوردة من نضال المرأة في الغرب الرأسمالي الامبريالي مثل اقتصاد بلدها المتخلف، والتي لاتدفع إلى التحرر العميق، مما يجعل مسيرتها تفتقد إلى الجذور، وكل مايفتقد جذوره يكون عرضة للاندثار والتشتت عند أول هبة ريح. لأقصد بالجذور أوهام الخصوصية والهوية الثقافية، فالعصر عصر عولمة والانغلاق على الذات لا يجدي، المطلوب العمل على ابتكار طرق نضالية من صميم واقعنا وفهم أنفسنا كجزء من مسيرة تحرر الإنسان في مجتمعنا، كي تنجح في تغيير علاقات القوة والمعرفة، وإلا فسنعيش مقصومات الشخصية أجسامنا في الوطن وروحنا في الغرب !!

جسر الخطيئة (أسطورة المرأة الضلع)

تستقي الأساطير وجودها من موضوعات كائناتها ميشولوجية تتجاوز تصورات الواقع الملموس، فهي وليدة الفكر الانساني، ولها ارتباط جدلي بالبنية الاجتماعية، إذ تشكل لغة التعبير الشعبي، وموضوع اعتقاد لاتصالها الوثيق بالغيبيات، مما يكسبها خطورة قصوى لأنها تقدم تفسيرات جاهزة، وتفرض سلوكات معينة ملبية لطموحات الايديولوجية التي تخدمها. ولا يخلو شعب من شعوب العالم اليوم والعصر عصر أبحاث علمية دقيقة، وتكتلات سياسية واقتصادية، وثورة اعلامية حطمت الحدود، من الفكر الأسطوري إذ يشكل مجالا من مجالاته الثقافية، وبعدا من أبعاد الوعي البشري، يكفي الإشارة إلى تواجد أبواب وأعمدة قارة في صفحات مجلات ذات أهمية على المستوى العلمي والمعرفي، وأقلام ينتزج فيها التقدم التكنولوجي باستحضار الأرواح، بغض النظر عن الميزانيات التي تصرف في مجال الخرافات والشعوذة في عصر التقدم العلمي الذي من المفروض أن يقوم بإلغاء هذا الفكر لأنه نقيضه، لكنه لم يفلح في القضاء عليه بقدر ما أفلح في ترويض الإنسان للتعايش معه. وقد نالت المرأة حصة الأسد في الفضاء الأسطوري الذي يشكل هويتها !!! فقصه خلقها من الضلع وتوحدتها بالحية، وبابليس والطرود من الجنة تشكل الإطار المرجعي المؤسس لاضطهادها التاريخي الذي تضرب جذوره في أعماق أعماق الأساطير، والذي ماتزال تعاني منه في عصر الأنترنت والعملة !!!

وإذا كان النص القرآني بريء من قصة المرأة الضلع فإن النص التوراتي في بنيته الفكرية والثقافية حاضر في كتب التفسير الإسلامية.

في الميثولوجيا التوراتية يبجل الرب الإله آدم من تراب الأرض، وينفخ فيه نسمة حياة، فيصير آدم نفسا حية، يأخذه ويضعه في جنة عدن¹

وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده، فاصنع له معينا نظيره² ويوضح الإصحاح نفسه كيف خلق الإله الرب لآدم هذا النظير في حواء «فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى حواء امرأة لأنها من امرئ أخذت» لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسدا واحدا. وكان كلاهما عريانيين آدم وامرأته وهما لا يخبجلان³ ودعا آدم امرأته حواء لأنها أم كل حي⁴.

وأوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت.

كيف تتحدث التفسير والتأويل الإسلامية عن هذه القصة الميثولوجية ؟ !

اختلف أهل التفسير في الحالة التي خلقت لآدم زوجته، والوقت الذي جعلت له سكنا، لكنهم يتفقون على قصة الضلع.

1 - سفر التكوين: الإصحاح 2

2 - سفر التكوين الإصحاح 2. 16 - 18

3 - سفر التكوين الإصحاح 2. 21 - 25

4 - سفر التكوين الإصحاح 3 - 20

يقول الطبري : وأسكن آدم الجنة، وكان يمشي فيها وحشياً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة، واستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنت ؟ قالت امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلي.

قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه :

ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء. قالوا : ولم سميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي. فقال الله له : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شقتما ⁵.

ويتفق عبد الله بن عباس مع الميثولوجية التوراتية .

«إن الله أخذ ضلعا من أضلاعه. من شقه الأيسر، وملأ مكانه لحما وادم نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كشف عنه السنة، وهب من نومه، رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله اعلم، لحمي ودمي وزوجي ⁶.

وإذا كان الطبري يشك فيما ذهب إليه ابن عباس فالقرطبي يعتمد على قول ابن مسعود وابن عباس :

لما أسكن آدم الجنة، مشى فيها متوحشا، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال : من أنت ؟ قالت : امرأة خلقت من ضلعتك لتسكن إلي. «وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها»

5. الطبري : جامع البيان في أحكام القرآن ج 1 ص 229

6. الطبري : جامع البيان في أحكام القرآن ص 230

ويرى ابن كثير و ابن عباس وابن مسعود.

أن آدم كان يمشي في الجنة وحشياً ليس له فيها زوجا يسكن إليها فنام نومه، فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها : من أنت ؟ قالت : امرأة. قال : ولم خلقت قالت : لتسكن إلي. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه، ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء. قالوا : ولم كانت حواء ؟ قال لأنها خلقت من شيء حي.

ويروي محمد بن اسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأخصر وهو نائم ولأم مكانه لحماً⁷.

المرأة الضلع التي خلقت أساساً للتسلية وتخفيف الوحشة عن آدم في صياغة الاسطورة التوراتية نقلها المفسرون والمؤولون المسلمون بتفاصيل ومواقف اسطورية رسخت في الذاكرة الشعبية كحقيقة مطلقة يستحيل انتشالها. فالمرأة عوجاء لأنها خلقت من أعرج وهو الضلع، وإن كان لا يمكن الاعتماد على هذا التفسير كحقيقة علمية عند الخاصة.

الإغراء الجنسي الموصل هو الآخر إلى الخطيئة الأصلية وحكاية السقوط أسطورة أخرى تعيد المرأة إلى الزمن الأصلي، "زمن حواء".

أباح الله لآدم وحواء أن يأكلا الفاكهة من أشجار عدن باستثناء شجرة معرفة الخير والشر التي تورث من يذوقها أو يلمسها الفناء، إلا أن الحية قالت لحواء بلسان معسول : ألم يحظر عليكما الله أكل الفاكهة ؟ أجابتها حواء قائلة : كلا بل نصحنا بالابتعاد عن شجرة معينة في وسط الجنة، وإلا كانت عاقبتنا الموت. قالت الحية أي الشيطان : إذن فقد

7- ابن كثير : تفسير القرآن ج 1 ص 19-20

خدعكما الله لأن ثمرها لا يسبب الموت، بل يورث الحكمة. إنه يريد أن يفيكما في جهل مطبق، واقتنعت حواء بأكل الفاكهة وأقنعت آدم⁸

بعد أن تناول آدم وحواء من ثمرة المعرفة نظر كل منهما إلى الآخر، فأدركا في الحال أنهما عريانان، عند ذلك قطعوا أوراق تين وخاطاه ليصنعا منه لباساً لكل منهما، ثم تنادى إليهما صوت خطوات الله في الجنة عند الغسق. فاخترقا خلف الأشجار، فنادى الله آدم قائلاً : آدم، آدم أين أنت ؟ فأجابه آدم من مكانه قائلاً : تزامن إلي صوت خطواتك يا مولاي فاخفيت عريي حياءً."

لكن الله سأله : ومن أخبرك أنك عريانا. هل أكلت من ثمر الشجرة المحرمة ؟ أجابه آدم " أعطتني حواء من ثمر الشجرة فأكلت. التفت الله إلى حواء وقال : «واحسرتاه أيتها المرأة، ماذا فعلت ؟! فجرت حواء حسرة وقالت : اغرتني الحية. فقال الرب للحية "لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت، على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، واضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وانت تسحقين عقبه. وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعابك في حملك، بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك.

وقال لآدم : لأنك سمعت أقوال امرأتك، واكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً : لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالثعب تاكل منها كل أيام حياتك، وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تاكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود⁹ .

8- سفر التكوين 3 - 1 - 6

9- سفر التكوين 3 - 20 - 21

في القرآن الكريم «وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»¹⁰.

وفي سورة طه «فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظمئ فيها ولا تصحى، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من روق الجنة وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي¹¹.

في تأويل الطبري أن آدم دعاها لحاجته فقالت : لا إلا أن تأتي ههنا، فلما أتى قالت : لا إلا أن تأكل من هذه الشجرة. يضيف الطبري "لما أراد إبليس أن يستزلهما دخل في الحبة، وكان للحبة أربع قوائم كأنها بهتية في أحسن دابة خلقها الله. فلما دخلت الحبة الجنة، خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء وقال لها : انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها. فأخذت حواء وأكلت منها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت : انظر إلى هذه ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها وأحسن لونها. فأكل منها آدم، فبدت لهما سوءاتهما، فدخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ قال أنا ههنا يارب، قال ألا تخرج ؟ قال أستحي منك يارب. قال : ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكا. ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجر كان أفضل من الطلح والسدر، ثم قال : يا حواء انت

10 - سورة البقرة الآيات : 34 - 35

11 - سورة طه الآيات : 114 إلى 119

التي غررت عبدي، فإنك لاتحملين حملا إلا كرها، فإذا أردت أن تضعي من في بطنك اشرفتي على الموت مرارا. وقال للحية : أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى أغرى عبدي، ملعونة أنت تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدا منهم اخذت بعقبه وحيث لقيك شذخ رأسك.

قصة خروج آدم من الجنة في صياغتها التوراتية تحمل المرأة وحدها لا الرجل مسؤولية السقوط. وهو موقف يكشف الانحياز ضدها.

في الميثولوجيا الاسلامية يتسلل الشيطان إلى جوف الحية ليدخل الجنة ويغري حواء، وحواء تغري آدم تحت تأثير سلاح الإغراء الجنسي فتوقعه في الجناية العظمى "خروج البشرية من الجنة حسب القصة التي أوردتها الطبري نقلا عن وهب بن منبه، احد أخبار اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ومزجوا بين التراث اللاهوتي واليهودي والعقيدة الاسلامية. وبالتالي فالضمير الإسلامي بفكره وثقافته يجعل المرأة لا رمزا للشر والإثارة والرذيلة والخطيئة، بل أصلها، وتكون قد أضاعت الجنس البشري بإقناعها لآدم أن يذوق من الشجرة، وكذا سائر الوحوش والطيور، ماعدا طائر العنقاء المخترة التي استكثرت وحدها ما فعلته حواء، ففازت بالخلود الأبدي. وارتبط اسم المرأة منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا :

* إبليس الشيطان بصفتها الجنس الضعيف الجانح إلى الانحراف، في حين اعتبر آدم البريء الضحية مثال الخير. وصار الحب والجنس في ثقافتنا العربية الاسلامية يقترنان بالشيطان ويرمزان إلى الرذيلة .

"ما آيس الشيطان من شيء إلا أتاه من النساء "

"ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما "

لولا حواء لم تكن أنثى زوجها الدهر كله

(رواه مسلم)

* وبالحية كرمز لحواء المثيرة للشهوة المدغدة للعواطف المحفزة للفرائر، توظفه مختلف مجالات التعبير الادبي والفني لكونها ترسخت في اللاشعور الإنساني.

قال أحدهم : سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندي ونصف سهمي وأنت رسولي في حاجتي ¹².

وفي الحديث : إن إبليس الملعون يخطب شياطينه فيقول : عليكم باللحم وبكل مسكر وبالنساء فإنني لم أجد جماع الشر إلا فيها.

من هنا الخوف على الأمة بأسرها مما قد بصيها من المرأة

"ما أخاف على أمتي فتنة أخوف عليها من النساء والخمر"

واقترن اسمها بالحية "آمن للحية ولا تامن لمرية"

مقتطفات من أدبيات إسلامية نسجتها عقول متحالفة مع طبقات الاقطاع الساهر على تكيف الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفق مقدسات تخدم مصالحها.

في القصص الصينية كل الاشياء كانت في بداية الامر خاضعة للإنسان، ولكن امرأة أوقعت بنا في ذل الاستعباد، فشقاؤنا لم ياتنا من السماء، بل جاءت به المرأة التي أضاعت الجنس البشري. وأنزل الله بها عقاباً أبدياً : نقص العقل والدين والتحالف مع الشيطان.

في جميع الميثولوجيات السابقة عن الاسلام تقع مهمة الدنو والاقتراب على الآلهة الأنثى.

12 - ابن القيم : تليس إبليس ص 25 الرائد العربي بيروت 1368 هـ

- في ملحمة الخليفة السومرية تردلف نثليل من الإله انكيد لتلد نثاً إله القمر

- في ملحمة جلجامش تدنو عشتار من جلجامش عارضة مفاتن جسدها الإلهي.

- وحواء بجمالها الساحر تردلف لأدم تدعوه لحراة فرجها .

الخطاب الإسلامي كخطاب ذكوري يجعل من الرجال مجرد منفذين لرغبات وأوامر النساء ويجعل من النساء أطراف المعارضة الرئيسيين يقوم ثمود الذين كانوا مولعين بالقيم الجمالية ولوا أمرهم لامرأة. يقول القرطبي أن ملكهم كان إلى امرأة يقال لها ملكى فحسدت صالحا لما مال إليه الناس¹³ .

وهذه النساء تنذر جسدها وجمالها قربانا على مذابح آلهتها المهددة من قبل دين صالح الجديد. فعنيزة ابنة غنم بن مجلز المكناة بام عثمان العدو الأولى لصالح تنذر إحدى بناتها الجميلات لقدار بن سالف إن هو عقر الناقة والمرأة الجميلة صدقة ويقال صدوق أو صدوف بنت الحيا بن زهير بن المختار التي تفارق زوجها المسلم، تنذر نفسها لمصدع بن مخرج ان هو عقر الناقة .

فالخطاب الإسلامي يلور بنفس طريقة التفكير الاسطوري اشكالا ومعاني جديدة. يقول عبد الوهاب بوحدية "أن الانتقال من القرآن والسنة إلى الفقه هو انتقال الوحدة المؤتلفة بين الجنسين إلى الثنائية. فالفقه ينظم المجتمع الاسلامي وفقا لتقسيم ثنائي للجنس¹⁴ .

¹³ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ج 7 المجلد 4 ص 238 . بيروت، دار الكتاب العربي

¹⁴ - 260 p. cit. op. La Sexualité en Islam Abdelouab Bouhdiba :

نكاح البعولة (المرأة كموضوع جنسي)

إن التفكير كالحب والموت لا بد لكل منا أن يمارسه بنفسه

جيشوارويش

خلق الله آدم من تراب في الجنة التي أعدت للمتقين. وإنا خلقناكم من طين لازب من حملا مسنون¹⁵. "خلق الإنسان من صلصال كالفخار" وخلقت حواء من ضلعه. هذا هو المفهوم الديني للمرأة عند العامة.

ومن هنا تأتي الرصية بها لا على أساس أنها خلقت من الضلع فقط، بل من الضلع الاعوج.

عن أبي هريرة قال (ص) "إن المرأة خلقت من ضلع وفي رواية وإن اعوج شيء في الضلع أعلاه، لن تستقيم لك على طريقة واحدة، وإن استمتعت بها استمتعت بها على عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها" رواه مسلم.

ومادامت قد خلقت من اعوج فلا يستقيم امرها، ولا يكتمل وجودها إلا بالرجل، الذي تكتسب منه قيمة حياتها، بحيث يداري بعقله اخلاقها، ويرجيه طيشها وسفهاها، لذا رغب الاسلام في الزواج منها :

"النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني"¹⁶،

15- سورة طه الآية 71- 72 سورة الرحمن الآية 12 .

16- قوة الميون شرح نظم ابن يامون في النكاح الشرعي وآدابه. محمد التهامي كنون الادريسي ط. 3 ص 13 دار العلم للجميع سنة 1963

"فضل المتاهل على العازب كفضل المجاهد على القاعد.

وركة من متاهل أفضل من سبعين ركة من عازب"

تقول عائشة رضي الله عنها : " ألغى الإسلام جميع أنواع النكاح، ما عدا نكاح البعولة"

فما المقصود بنكاح البعولة ؟ جاء في لسان العرب : البعل : الزوج، وسمي زوج المرأة بعلا لأنه سيدها، ومالكها، ويطلق لفظ البعل على المالك والرئيس، مادام رئيسا ممتلكا.

وتبعلت المرأة يعني أطاعت بعلاها، ونقول امرأة حسنة التبعل إذا كانت مطيعة لزوجها محبة له.

والبعل : " صنم : وسمي بذلك لعبادتهم آياه كأنه ربهم. يقول عز وجل وأتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين : وقيل معناه أتدعون رباً. ويقال أنا بعل هذا الشيء أي ربه ومالكه.

نكاح البعولة يأسس الحياة الزوجية ويجعل الرجل رباً لها وقيما عليها

"لا نكاح إلا بولي" (رواه الترمذي وأبو داود)

وولي المرأة هو الذي يتولى عقد النكاح عليها ولا يدعها تستبد بعقد النكاح على نفسها دونه.

أيما امرأة انكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها

باطل، فنكاحها باطل» (رواه البيهقي ومسلم والحاكم)

* لقيت حركة النساء المطالبة التي توجت بتأسيس المجلس الوطني للتنسيق في مغرب التسعينات صدى داخليا وخارجيا ولدى مراكز القرار نظرا لطابعه التنظيمي واتساع قاعدته وللطبيعة العملية التي ميزت شعاره " ضرورة تعديل مدونة الاحوال الشخصية لتجاوز المشاكل الاجتماعية والقانونية الناتجة عن مضمونها وعن الأجراءات المسطرة المرتبطة بقضايا الاحوال الشخصية" وركزت على إلغاء الولاية في الزواج لأنه يتعارض مع معطيات المادة 16 من الاعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على إلزامية رضى الطرفين، ومع مضمون اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة ومع مقتضيات الدستور المغربي التي تنص على حق المرأة في تمثيل نفسها - وصدر القانون الجديد متضمنا تعديلات منها

إلغاء الولي في عقد الزواج بالنسبة للرشيدة التي لا أب لها والحفاظ عليه كشرط بالنسبة لباقي النساء. ومكرسا نكاح البعولة

ففي ظل هذه المؤسسة يحق للولي عرض ابنته على من يلمس فيه التقوى والصلاح.

فنبى الله لوط يعرض ابنته : قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك مستجدني إن شاء الله من الصالحين¹⁷.

وعمر بن الخطاب يعرض ابنته حفصة على بعض الصحابة قائلا : «إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر¹⁸».

ونكاح البعولة رق حسب الحديث :

«النكاح رق، فليُنظر أحدكم أين يضع كريمته، فلا يزوجها إلا ممن كان كفؤا لها» رواه البيهقي

ومرتبة الزوج في نكاح البعولة تأتي بعد مرتبة الاله.

«لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبي (ص)، فقال : ما هذا ؟ قال : يا رسول الله رأيتهم يسجدون لبطارقتهم واساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك. قال : لا تفعل فإني لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها. والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها»

وعن حصين بن محصن أن عمه له أنت النبي (ص)، «فقال لها أ ذات زوج أنت ؟ قالت : نعم. قال : فأين أنت منه ؟ قالت : ما آلوه إلا ما عجزت عنه. قال : فكيف أنت له فإنه جنتك ونارك»

17 - سورة القصص الآية 27

18 - رواه البخاري

وفي الحديث «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح»

وقال الرسول (ص): «لعن الله المسوفات»: التي يدعوها زوجها إلى فراشه فتقول سوف (...). حتى تغلبه عيناه (رواه البخاري عن أبي هريرة)

وقال ابن عباس: «حق الزوج على زوجته إذا أرادها فراودها على نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه»

في نفس السياق يقول الغزالي: النكاح رق، فهي رقيقة له، فعليها طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها في نفسها.

إنه خطاب يحول المرأة إلى «ظل للزوج» وإلى مجرد صدى له، ويفرض عليها أن تكيف أحاسيسها وشعورها وكيونتها وفقا لمتطلبات الرجل، ولا قيمة لها منفصلة عنه.

والمرأة في النشاط الجنسي موضوع للمتعة فقط

«فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة»¹⁹

«ارضوهن فإن رضاهن في فرجهن»

وكلمة نكاح لا تعدو أن تكون عملية تماس فيزيائية لا تتضمن لغويا أي شيء يوحي باللذة الجنسية أو المشاركة في العملية من قبل المرأة موضوع الجنس ويخاطب بها الرجل وحده²⁰. في القرآن الكريم

«فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»

19. سورة النساء الآية 24

20. بوعلی هاسین الثالث المحرم، ص 45

والمفروض أن يتم الاتصال في تلك العلاقة الحميمة السامية لا عن طريق تماس فيزيائي فقط بل اخلاقي وسلوكي وفكري وروحي.

وتفضل العذارى على الثيب فقد نصح الرسول (ص)، رجلاً أتاه يستشير في امرأة ثيب يحبها أيتزوجها ؟ فقال له : "هلا جارية تلاعبها وتلاعبك"

متفق عليه عن جابر.

وقول الرسول (ص) هذا قد يكون صادراً عن تجربته العملية من خلال زواجه بخديجة رضي الله عنها !!!

«ما للعذارى ولعابها»

رواه البخاري

وللزوجة البكر من زوجها سبعة أيام الأولى بعد الزواج في حين. لا تنال الثيب سوى ثلاثة أيام .

فحسن التبعل القائم على الملكية والسلطة والتفاوت هو الأساس الذي تنبني عليه الحياة الزوجية. قيل للرسول (ص) : أي النساء خير : قال : التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا في ماله بما يكره (رواه البخاري)

أحاديث تفيد أن الزوج قد يملك بصك عقد الزواج المرأة كما يملك بقعة أرضية، ويصبح وضعها كوضع العبد بالنسبة لسيده، حيث لا قوة له ولا حول. وفي النساء من وعين وضعهن في ظل هذه المؤسسة فعزفن عن الزواج لظروفه المجحفة لحقوقهن وولما فيه من إهدار لإنسانيتين وكرامتهن.

أتى أحدهم إلى الرسول (ص) فقال له : إن ابنتي هذه أبت ألا تتزوج، فقال لها : الرسول (ص) أطيعي أباك. فقالت : والذي بعثك

بالحق لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الزوج على زوجته، قال : حق الزوج على زوجته ولو كان به فرحة فلهستها، وانتشر منخراه صديدا أو دما ثم ابتلعت ما أدت حقه،

هذا الجواب جعل الفتاة تقول : والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبدا (رواه ابن حبان)

ومفهوم كلمة "بعل" يتضمن صورة الهيمنة الاجتماعية للرجل قال على بن أبي طالب : الصلاة قربان كل تقي والحج جهاد كل ضعيف ولكل شيء زكاة، وزكاة البدن الصيام، وجهاد المرأة حسن التبعل²¹.

وقال الرسول (ص) اثنان لا تجاوز صلاحتهما رؤوسهما : عبد أبى حتى يرجع إلى أهله وامرأة عصت زوجها حتى ترجع (رواه البخاري)

وتتحول المرأة في إطار هذه المؤسسة التعاضدية إلى آلة للتفريخ ووسيلة للترويح عن النفس والتحصين من الشيطان.

قال (ص) «تزوجوا الودود الولود فإني مباح بكم الأمم».

إن المرأة إذا قبلت أقبلت بصورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليات أهله فإن معها مثل الذي معها ، رواه مسلم والترمذي

والريقة بالنكاح لا مخلص لها سوى الخنوع، وأي تمرد أو عصيان منها مرفوض، أما الطلاق فبواسطة يُلوي الرجل عنقها وتستحال ممارسته من طرفها.

21- ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج 4 ص 308

قال (ص) : «أيا امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»²² (وقيل : أن المختلعات هن المناققات وما من امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فتحرم رائحة الجنة).

وقال الشيخ الأزدي : «لا تنكح أربعا : المختلة والمبارية والعاهرة والناشر» متفق عليه من حديث جابر

وقيل بل ستة : لا أنانة ولا منانة ولا حنانة ولا حراقة ولا برافة ولا شداقة تستقل بنصيبيها في كل شيء.

وفي المقابل نجد الخطاب الاسلامي صارما في حث الرجل على احترام المرأة الطائعة والمطبعة، والاهتمام بها (مفهوم الطاعة بوصفه التعبير السلطوي المباشر للتبعية القائمة على منهج التفاوت بين الناس). هذا النكاح يضيف على الرجل صفة القداسة المحفورة في ذاكرة الخيال العربي باعتبار أن الراعي لا يقبل من يشاركه الحكم في مملكته، والرجل مسؤول عن رعيته في البيت، والمرأة التي تتعدى حدود مارسم لها في بيت الزوجية امرأة ناشز متمردة، تشق عصا الطاعة على سيدها. فالاسرة كخلية أولى في المجتمع تجسد هي كذلك مفهوم الطاعة السياسي العقيدى السلطوي لرب الاسرة وراعيها انطلاقا من تجذر قدسية السلطة الرعوية في الخيال العربي²³.

قال الرسول (ص) «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت الجنة» (رواه أحمد والبخاري)

وقال أيضا لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما انفقت من غير أمره فإنما يؤدى إليه شطره» (رواه البخاري).

22 - المنفري التهيب والترغيب ج 3 ص 84

23 - محمد عبد الجباري، العقل السياسي العربي ص 42 المركز الثقافي العربي.

بالحق لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الزوج على زوجته، قال : حق الزوج على زوجته ولو كان به قرحة فلهستها، وانشر منخراه صديدا أو دما لم ابتلعه ما أدت حقه.»

هذا الجواب جعل الفتاة تقول : والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبدا
(رواه ابن حبان)

ومفهوم كلمة "بعل" يتضمن صورة الهيمنة الاجتماعية للرجل قال
على بن أبي طالب : الصلاة قربان كل تقى والحج جهاد كل ضعيف ولكل
شيء زكاة، وزكاة البدن الصيام، وجهاد المرأة حسن التبعل²¹.

وقال الرسول (ص) اثنان لا تجاوز صلاحتهما رؤوسهما : عبد أبى حتى
يرجع إلى أهله وامرأة عصت زوجها حتى ترجع (رواه البخاري)

وتتحول المرأة في إطار هذه المؤسسة التعاضدية إلى آلة للتفريخ ووسيلة
للترويح عن النفس والتحصين من الشيطان.

قال (ص) «تزوجوا الودود الولود فإني مباح بكم الأمم».

«إن المرأة إذا قبلت أقبلت بصورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة
فأعجبته فليات أهله فإن معها مثل الذي معها» رواه مسلم والترمذي

والريقة بالنكاح لا مخلص لها سوى الخنوع، وأي تمرد أو عصيان
منها مرفوض، أما الطلاق فبواسطة يلوي الرجل عنقها وتستحال ممارسته من
طرفها.

21- ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج 4 ص 308

قال (ص) : «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»²² (وقيل : أن المختلعات هن المنافقات وما من امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فتحرم رائحة الجنة) .

وقال الشيخ الأزدي : «لا تنكح أربعا : المختلة والمبارية والعاهرة والناشر» متفق عليه من حديث جابر

وقيل بل ستة : لا أمانة ولا منانة ولا حنانة ولا حراقة ولا براءة ولا شداقة تستقل بنصيها في كل شيء.

وفي المقابل نجد الخطاب الاسلامي صارما في حث الرجل على احترام المرأة الطائعة والمطيعه، والاهتمام بها (مفهوم الطاعة بوصفه التعبير السلطوي المباشر للتبعية القائمة على منهج التفاوت بين الناس). هذا النكاح يضيف على الرجل صفة القداسة المحفورة في ذاكرة الخيال العربي باعتبار أن الراعي لا يقبل من يشاركه الحكم في مملكته، والرجل مسؤول عن رعيته في البيت، والمرأة التي تتعدى حدود مارسم لها في بيت الزوجية امرأة ناشز متمردة، تشق عصا الطاعة على سيدها. فالأسرة كخلية أولى في المجتمع تجسد هي كذلك مفهوم الطاعة السياسي العقيدى السلطوي لرب الأسرة وراعيها انطلاقا من تجذر قدسية السلطة الرعوية في الخيال العربي²³.

قال الرسول (ص) «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت الجنة» (رواه أحمد والبخاري)

وقال أيضا لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما انفقت من غير أمره فإنما يؤذي إليه شطره» (رواه البخاري).

22- المنذري الترهيب والترغيب ج 3 ص 84

23- محمد عبد الجباري، العقل السياسي العربي ص 42 المركز الثقافي العربي.

وفي حديث آخر : «ولا تعطي شيئا من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت كان له الأجر وعليها الوزر» (رواه البيهقي والطبرسي).

وقيل «ما انفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل يؤجر على اللقمة التي يرفعها إلى في امرأته» متفق عليه من حديث ابن مسعود .

ظل الخطاب الإسلامي عبر العصور نسيجاً اجتماعياً قائماً على الأيديولوجية المحفورة في أعماق الوعي الجمعي المخروسة على عبودية المرأة وقهرها وحصر وظيفتها في المتعة الجنسية لرب الأسرة وحراسة البيت بأمانة في غيبتها دون اتخاذ أية مبادرة ولو كانت في إطار ماتقره لها الرسالة، في ظل طبقة تستمتع بكل امتيازات الحكم الفردي المطلق تدعمها بنصوص وتأويلات وأحاديث صحيحة أو موضوعة لما يلائم ظروفها المستجدة، وتعمل على ترسيخها ولو بلغة السيف أحياناً ... حيث زواج الحرائر ذوات النسب العريق لدعم ذوي السلطان، واقتناء الجواري والإماء للمتعة طبقاً للآية «إلا على أزواجهن أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين»²⁴ رغم ما يترتب عن ذلك من إرقاق الولد الذي أجازوه بدعوى أنه أهرن من هلاك الدين، والغريب في هذا المنطق أن الدين نفسه يحض على العتق وتحرير الإنسان، بل جعل تحرير الرقاب يقرب من الله، ويخفف الذنوب، إلا أن المنحى الذي اتجه إليه المجتمع خلاف ما يدعو إليه الإسلام حول الجنس إلى علاقة قسرية اغتصائية قائمة على الشهوة والبغي والسفاح لا حاجة طبيعية قائمة على التكافؤ والاحترام والمودة والتقدير .

فقد كان نبي الله سليمان يطوف على تسعين امرأة كل ليلة وكان له عند كل امرأة شهوة (بمعدل عشر دقائق لكل واحدة منهن، كان يخصص لذلك 12 ساعة . وتزوج 700 امرأة وكانت له 300 جارية !!

24 - سورة المومنون الآية 6

* وكان الرسول (ص) يطوف على نسائه في الليلة الواحدة.

قال ابن عباس: أفضل هذه الأمة أكثرها نساء، كان الرسول (ص) من أقدره الله تعالى على ذلك وحببه له وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين.

وعن طاووس أعطى رسول الله قوة أربعين رجلا في الجماع²⁵.

* وكان علي بن أبي طالب أزهد الصحابة وله أربع نساء وسبع عشرة سرية، ونكح بعد وفاة فاطمة الزهراء بسبع ليال فقط.

* وأحصى المرائي زوجات الحسن بن علي وكن سبعين، ونكح مائتين. قال عنه أبوه "لو قطع إحليل الحسن وعلق على باب الكوفة لعرفه كل أو نصف نسائها. وربما عقد على أربع أو طلق أربعاً دفعة واحدة.

* واحصي للمغيرة بن شعبة ثلاث آلاف امرأة على شكل دفعات كل دفعة تضم أربع زوجات وست وسبعين جارية.

* وكان عبد الله بن عمر من زهاد الصحابة وعلمائهم يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل. وربما جامع ثلاثاً من جواريه في شهر رمضان قبل العشاء الأخير.

أما الجنيد فكان يقول "احتاج إلى الجماع كما احتاج إلى القوت. الزوجة قوت للاستهلاك وسبب لطهارة القلب ووسيلة للتفتن في ممارسة الجنس.

قال علي بن أبي طالب "عليكم بالخارقة من النساء فما ثبت لي منهن إلا أسماء".

25. نهاية الإرب في فنون الأدب القاهرة 1954 ص 294 ج 6

* المباشرة على الحنب / الفلمة : التي تسبب هيجان الشهوة

وفي الحديث «خير النساء الغلظة على زوجها».

وروى جعفر الصادق عن الرجل يأتي المرأة في دبرها فقال : لا بأس إذا رضيت. قيل له : فأين هذا من قوله عز وجل فأتوهن من حيث أمركم الله. قال هذا في طلب الولد !!

وتقر الفلسفة الاسلامية بالحرية الجنسية للرجل، وبقوة الجنس عند المرأة، وببداً الجنس لذاته، لكن من طرف واحد، ومع النساء من الدرجة الثانية (وما ملكت أيمانكم)

الشهوة عشرة أجزاء : تسعة للنساء والعاشرة للرجال إلا أن الله سترهن بالحياء²⁶.

نكاح البعولة يجعل من الجنس علاقة مؤسسية يمارس فيها البعل رب الأسرة سلطته على المرأة (موضوع الجنس) ومنها يستمد قوته وفحولته (الزوجات وما ملكت اليمين) والاقتصادية (الانفاق) والاجتماعية (مباركة المجتمع والقانون والاعراف) والايديولوجية حيث وضع المرأة كأنتى للاستئناس وإزالة الكرب يحرمها من العيش في ظل هذه المؤسسة في علاقة متكافئة مع الرجل ما دامت حاجتها الطبيعية إلى الجنس كحاجته ويقلص وجودها بتخصيص نفسها له، وتدير شؤون المنزل التي لا تقوم ماديا في سوق العمل، بعيدا عن الحياة العامة للمجتمع في علاقة غير متكافئة اجتماعيا أو قانونيا، وخالية من مضامينها الانسانية، حيث يحق للبعل تأديب الزوجة المتعمدة بالضرب.

عن عمر بن الأحوص عن رسول الله قال : استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة

26- الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ج 2 ص 33

مبينة. فإن فعلن فاهجورهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح (رواه أبو داود والنسائي).

وحينما قال (ص) لاتضربوا إماء الله

جاءه عمر بن الخطاب وقال له "ذئرن* النساء على أزواجهن" فرخص بضربهن.

فطاف بآل رسول الله نساء كثيرات يشتكين أزواجهن فقال (ص).

« لقد طاف بآل محمد نساء كثيرات يشتكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم. »

الحادثة تظهر ثورة نساء المهاجرين بعد أن احتككن بنساء الانصار اللاتي كن واعيات متفقهات يناهضن زواج البعولة القائم على التسلط والقهر والإذلال وتجسد هذا التمرد في المظاهرة التي قمن بها أمام آل محمد بعد أن تعلمن من الانصاريات المتصفات بالجرأة لفرض احترامهن ورقة معاملتهن.

وانسجاما مع هذا المعطى الضيق القائم على سلطة التركيب الاقتصادي التي يستمد منها الرجل مشروعية هيمنته على الاسرة، فإن هذه المشروعية تمتد إلى الاطفال أيضا.

«أنت ومالك لأبيك»

فالرغبة في الاطفال تبني على منطق المصلحة والمنفعة : فهم قرة عين في الدنيا وذخيرة للآخرة.

* ذئرن : ثرن وتشرن - أطاف : أحاط

* حاشا أن يكون الرسول (ص) قد قصد بالضرب الضرب المادي لأنه ماثبت أن ضرب في حياته قط. قد يقصد به الضرب المعنوي. فرجوعا إلى القاموس قد نجد في قوله تعالى : فإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا الصلاة ... بمعنى إذا سافرتم وابتعدتم

قال عمر بن الخطاب "إنما أنكح للولد"

وإذا عجزت المرأة عن الارتقاء إلى مستوى المنجيات بالعقم فيجب الابتعاد عنها ولو كانت امرأة مكرسة للواجب قال الرسول (ص) : «لخصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد» (أخرجه التوفاني في كتاب معاشر الأهلين موقوفا على عمر بن الخطاب)

سوداء ولود خير من حسناء لا تلد (أخرجه البيهقي)

والولد هو الهدف الأول وله وضع النكاح. حسب أبو حامد الغزالي «وهو قرة عين في الدنيا» : قالت امرأة العزيز قرة عين لي ولك !! ويقول تعالى : «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين»²⁷.

فالطفل إذا مات قبل أبويه يكون شفيعا لهما.

قال (ص) "إن الطفل يجر بأبويه إلى الجنة" (أخرجه ابن ماجه)

وقال أيضا : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له.

والادعية تعرض على الموتى في أطباق من نور. أكثر من ذلك يقال للمولود : ادخل الجنة فيقف على بابها وبظل محبطينا أي ممتلئا غيظا وغضبا ويقول "لا أدخل الجنة إلا وأبواي معي. فيقال !! أدخلوا أبويه معه الجنة (أخرجه ابن حبان والنسائي عن أبي هريرة)

ويشكل هؤلاء الأطفال جبهة الرفض والمعارضة يوم القيامة ويعتصمون فرادى وجماعات ليستجاب لطلبهم بنجاة آبائهم.

27 - سورة الفرقان الآية : 74

"إن الأطفال يجتمعون في موقف يوم القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة. فيقفون على باب الجنة فيقال لهم : مرحبا بذراري المسلمين، ادخلوا لاحتساب عليكم، فيقولون فأين آباءنا وأمهاتنا ؟ فيقول الخزنة : إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم، إنهم كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها. قال : فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم ما هذه الضجة ؟ فيقولون : ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا : فيقول الله تعالى : تخللوا الجمع فخذوا بأيدي آبائهم فادخلوهم الجنة²⁸. والله عز وجل يقول : «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزى الجزاء الأوفى». سورة النجم الآية 37 إلى 40. مما جعل بعض الصالحين - طبقا لهذا المنطق النفعي - ينتبه يوما من نومه قائلا زوجوني زوجوني. فزوجوه، فسل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقني ولدا ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة²⁹.

أين أبو حامد الغزالي باعتباره بوقا للسلطة من شبائنا المعطل التواق إلى الزواج والمعرض عنه كرها ! تبقى المرأة في زواج البعولة مكرسة للواجب نتيجة بقايا قوانين العبودية ولا تأمن على مكانتها قبل إنجاب الأولاد، والذكور منهم بالخصوص، وتظل العلاقة بين الأزواج والزوجات والابناء فارغة من الحب والدفء العاطفي، فما عدا الأب فالكل يشعر بنوع من التعاسة والكبت والظلم والغبن هذا ما عبر عنه أحد شباب تونس في الستينات.

"من منا نحن العرب يستطيع أن يزعم بأن عائلته أو البيعة التي قد عاش فيها قد أرادته وقبلته وأحبته واعترفت بذاتيته ؟ لا أحد بكل تأكيد ! إذ

28 - أبو حامد لغزالي : أحياء علوم الدين ج 2 ص 30

29 - نفس المرجع ص 31

كيف يمكن للإنسان أن يكون محبوباً عندما ينحصر وجوده في كونه شيئاً مفيداً قد جرى إنتاجه من أجل استمرار العائلة وشيخوخة الوالدين، أو من أجل إرضاء كبرياء الأب، الذي يثبت وجوده بكثرة أطفاله "إنه لا ينجبنا من أجل ذاتنا بل من أجل نفسه. وليس نحن الذين نأتي إلى العالم بل هو الذي يرى حياته مطبوعة بطابع التربية والقيمة. وهكذا فإن ولادتنا ليست إبداعاً حراً، بل محاولة لتمديد حياة الأب. إنه ينجبنا لتكون سنداً لحياته، وبالتالي فهو يحرمنا من حياتنا نحن، فنحن لا نعيش بل نتيج له أن يعيش هو من خلالنا وهذا ما يجعل حياتنا مزيفة منذ البدء³⁰.

وتظل المرأة عبر تاريخها الطويل تقاوم من أجل تأكيد وجودها في إطار أسرة سلطوية استبدادية تتعامل معها على أساس تراتب هرمي، ولا تعتبرها الشريكة المسؤولة. وفي مجتمع يقاوم هذا الوجود طبقاً للحو الفكري والسياسي المشحون بالتآمر والشك والخوف يقول «فروم» إن الشخص السلطوي يعجب بالسلطة ويميل إلى الخضوع لها لكنه في الوقت نفسه يكون هو نفسه سلطة ويكون عنده آخرون يخضعون له. والسلطوي تثيره القوة إما لكي يخضع لها أو ليمارسها على من يعتبرهم أضعف منه.

والمرأة وكذلك الطفل والفقير مهوون لكي يمارس عليهم الاستبداد من طرف الرجل السلطوي (الزوج، الأب، الحاكم) لوضعهم الأدنى البيولوجي والاجتماعي والاقتصادي³¹. وفي نفس السياق يقول هشام شرابي "إن الاضطهاد في مجتمعنا هو على ثلاثة أنواع : اضطهاد الفقير،

30 - Mohamed Karour "Une fois un Arabe. Une fois des Arabes: des Temps Modernes sept oct 1972 Q 347

31- جريدة العلم : المجتمع العربي بين قمع السلطة وقمع المرأة (مقال) : العدد 16905 - 23

ربيع الأول 1417 / 9 غشت 1996

واضطهاد الطفل، واضطهاد المرأة³². قال عمر بن الخطاب: "كنا لا نعد النساء شيئا فلما جاء الاسلام وذكرهن رأينا لهن بذلك حقا (رواه البخاري).

ورغم أنه جمعها بالرجل الايمان والهجرة والسفينة والعلم والجهاد، فإن ما نزل في حقها قرآنيا كان بدافع شكواها والحاحها في الطلب والاحتجاج لتأكيد ذاتها، فالنساء هن اللواتي طالبن بالخروج إلى الجهاد وإلى المساجد "إن بعولتنا ليمنعننا من المساجد ليقول (ص) «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وطالبن بشهود الاعياد «دعوا العواتق ذوات الخدور يشهدن الأعياد» ويشكين إكراههن على البغاء: إن سيدي يكرهني على البغاء لينزل قوله تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء»

ولسان العرب الذي نزل به القرآن يغلب صيغة المذكر إذا خاطب جمعا يضم الرجال والنساء واحتجت النساء على ذلك. «أكنُ نساء الإسلام جامدات راكذات!!»

وما نزل الوحي بإنصاف مظلومة إلا بعد تظلمها وشكواها للرسول (ص) عن ابن حاتم عن عائشة: "تبارك الذي أوحى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله قائلة: "يا رسول الله أكلَ مالي وأفنى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني ظاهر مني، اللهم إني أشكوه إليك قالت عائشة فما برحت حتى نزل جبريل بالآية: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي» (سورة المجادلة)

وطالبن بحق الميراث: جاءت زوجة سعد بن الربيع محمدا (ص)، قائلة هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما معك في أحد شهيدا، وإن عمهما أخذ

32 - شرايي هشام: مقدمات لدراسة المجتمع العربي ص 112 الدار المتحدة للنشر. بيروت ط 1/ 1975

مالهما فلم يدع* لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال (تفسير الجلالين ص 198). واشتكت أم كحلة أخذ الورثة لمال زوجها وتركهم دون مال. وناقشت قوامه الرجل وفضليته : أنت امرأة رسول الله وقالت يا رسول الله للذكر مثل حظ الانثيين، وشهادة امرأتين برجل، أفنحن في العمل هكذا؟ إذا عملت المرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة. وقالت أم عمارة للنبي (ص) ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء لتنزل الآية 34 من سورة الأحزاب. وسألته أم سلمة : لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء لينزل قوله تعالى : فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم (آل عمران 195)

وتحت تأثير وطأة التبعية ومنهاج التفاوت الجنسي وفدت أسماء بنت يزيد الانصارية إلى الرسول معرضة عليه قضية المرأة بمفهومنا المعاصر وما تشعر به من حيف وقمع وظلم وهو بين أصحابه فقالت : «بأي أنت وأمي يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمننا بك وبرسالتك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم في هذا الأجر والخير. فالتفت النبي (ص) إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ فقالوا يا رسول الله ماظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت إليها النبي (ص) وقال : «افهمي أيتها المرأة واعلمي من وراءك أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته تعدل ذلك كله »

(رواه مسلم)

إجابة واضحة تزكي مفهوم السيادة وتكرس واجب الطاعة والولاء. وجاءت إليه امرأة أخرى فقالت : أنا وافدة النساء إليك، هذا الجهاد كتبته الله تعالى على الرجال فإن أصيبوا أثيوا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، ونحن معشر النساء نقوم عليهم فمالنا من ذلك الأجر؟ فقال (ص) ابلي من لقيت من النساء أن طاعة للزوج، واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله (رواه الطبري والبزار)

نفس الموقف سيتكرر مع ابنته فاطمة الزهراء حين شكت إليه زوجها علي : "اسمعي واستمعي واعقلي أنه لا امرأة لامرأة لا تأتي هوى زوجها" ³³.

رغم ما يمكن الحديث عنه من تقدم المرأة أو تطور وضعها فالواقع الملموس يؤكد أنها لا تملك سوى الانتقال من مجتمع ذكوري إلى آخر يحتكر السلطة ويدعمها وينمي مشروعيتها اعتمادا على الفكر الاسلامي الذي قسم الناس إلى طبقة رجال وطبقة نساء وطبقة "عبيد" وأحرار. وما دام الضد بالضد يذكر فقد جاء في وصية أعرابية لابنتها عندما اهدتها لزوجها "أقلعي زج رحمة، فإن أقر فاقلمي سنانه، فإن أقر فكسري العظام بسيفه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه فإن أقر فضعي الاكاف على ظهره فإنما هو حمار وهذا هو قبيح التبعيل.

رغم هذا الوجه البشع لزواج البعولة الخالي من القيم الانسانية، والمدعم بميراث ثقلي اتباعي، فالعديد من النساء يرفض القيم والمفاهيم العقيمة التي أقرها المجتمع الأبوي بالنسبة للأسرة والمرأة لأنها تكرس الخضوع والعبودية. فهل تحرر الرجال بمن فيهم منتجو الخطاب التقدمي من عقدة التفوق على المرأة في حياتهم الخاصة، التي تسكنهم في لاوعيتهم لكي نستطيع أن نناضل جميعا لخلق علاقة انسانية تعطي القيمة لقدرة الفرد وابداعه وتحقيق. إنسانية ذكرها كان أم أنثى!!!

المرأة في المخيال التراثي العربي

«إذا أردت أن تتلمس الوحدة العربية الحقيقية ستجدها قائمة في
الفنون الشعبية العربية»

الدكتور أحمد مرسى

من باب تعرفنا على واقع المرأة الذي هو حصيله تراكمات وموروثات
تركة الماضي التي تضرب بجذورها في أعماق أبنية أسطورية لاهوتية أدينية
منذ عصور ما قبل العلم والعقل وانتقالها بالتوارث من جيل لجيل لتعيش
معنا وتتحكم بمخيلتنا، وتتوالد تحت تأثير وسلطة العادة مدعمة لخدمة
أغراض اجتماعية طبقية كان لزاما علينا طرح السؤال التالي :

إلى أي مدى جاءت استجابة هذا الموروث لخدمة التغيير والتشكل لما
يحقق التوافق والاستجابة للحتميات العلمية والتطورات التكنولوجية، وما
يوفر المزيد من التقدم والإنتاج، وبواكب عصر العلم والتصنيع والثورة
الإعلامية، يحقق إنسانية الإنسان وإنسانية المرأة بصفة خاصة.

قبل الإجابة عن السؤال لابد من تحديد مفهوم الموروث الثقافي
الشعبي الذي سيكون محور بحثنا في هذا الفصل.

الموروث الثقافي الشعبي مادة حية تضم كنوزا فنية غزيرة تعتبر وعاء
للكثير من العادات والتقاليد والأعراف التي تشيع في مجتمع ما، وتتداول
بين أفرادها، ويلتزم بها عبر أجياله. وهي نوعان :

أدب مكتوب في قصص وسير وحكايات، كتبه مؤلفون بإمكانهم
الكتابة بالفصحى لكنهم أثروا الكتابة في العامية تلبية لاحتياجات العامة
لهذا الصنف من الأدب.

وأدب منطوق لا يعرف مؤلفوه، حفظته الذاكرة الشعبية، كالأمثال والحكايات والاساطير والخرافات والملاحم والموسيقى والغناء والرقص والالعب والنكت والالغاز والنوادر وترانيم الأطفال ... وكل ما يرتبط بالجمال الشفهي، استوحت حياة القبائل العربية وإن كتبت خارج شبه الجزيرة العربية كمصر والشام والعراق والمغرب، وغلب عليها الفكر الديني الاسلامي الذي لم ينفرد به قطر دون الآخر، بل أتيح له الانتشار في مختلف الاقطار العربية لكونه يعتمد في الغالب على طريقة واحدة في أساليب العرض وطرائق السرد.

ولا تخلو المأثورات الشعبية من حضور المرأة التي اسرت أقلام العديد من الادباء والعلماء والفقهاء - كما أسرت قلوبهم - فمن لم ينظم فيها شعراً كتب فيها نثراً، ومن لم يكتب فيها نثراً، ألف حولها قصصاً وروايات، ومن لم يؤلف القصص والروايات سن لها أحكاماً وقوانين وأول لها تأويلات !!! ومن لم يفعل ذلك كله اصدر فيها أقوالاً تداولها الناس في شكل أمثال وحكايات وحكم ... هذا الحضور أتى بصيغ مختلفة حيناً، متضاربة أحياناً، ترفعها إلى أعلى عليين وتسمو بها إلى مرتبة الملائكة تارة، وتضعها أسفل سافلين وتنزل بها إلى مستوى إبليس أخرى، أو تتخذ طابع الاثارة الغريزية كالرقص الخليع أمام جمهور من التملين يتلذذون بامتهانها، وامتهان المرأة دليل على تردي أحوال المجتمع المعيشية، وفساد أخلاقه، وتزمت وانغلاقه على نفسه. إذ حشما وجد التزمت والحصار، وجد في المقابل التركيز على الجنس ومفاتن المرأة.

وبعد التراث الشعبي أساساً لفهم سلوك الرجل العربي تجاه نفسه، قبيلته، عشيرته، مجتمعه، أسرته، وتجاه المرأة، بما تضمنته من أفكار وتصورات مسبقة تكونت عبر العصور، وحفرت في الذاكرة بفعل ثقافة معادية لتقدم الإنسان حضارياً ذكراً كان أم أنثى ؛ غير أن هذا التراث في مجمله يغازل الرجل ويقدم له ورقة تعريف عن امرأة بحيلها ومكائنها

ومساوئها وعيوبها الكثيرة، دون إغفال بعض المحاسن التي تدعوه إلى الاستمتاع بها، كوعاء يحفظ السلالة ويضمن استمرارية الأسرة لدرجة يتأكد معها المهتم بفنون ودخائر هذه الثقافة أنها موجهة من الرجل إلى الرجل، من الرجل المحنك الذي خبر الحياة وفهم اسرارها واحتك بالمرأة واطلع على جزئيات حياتها، ونسج خيوط هذه الصورة التي ابتكرها انطلاقاً من أسطورة خلقها من الضلع وكونها الجسر الذي عبر منه آدم الضحية إلى الخطيئة، والطرود من الفردوس، وتجنّبها على البشرية قاطبة، إلى ذلك المبتدئ الذي سيبدأ خطواته الأولى انطلاقاً من أرضية تشكلت معالمها من القراءة الضمنية لعقلية الذي سبقه إلى الوجود، والمبنية أساساً على الخطيئة الأبدية، باعتبار أن الأفكار السائدة في المجتمع هي أفكار الرجل تتداول في مجتمع من صنعه، بصفته عنصر الإنتاج الرئيسي وبصفته الأكثر خبرة وتعليماً وباعتبارها تشكل التابع الذي يتحكم فيه بشتى الوسائل (...)

لتساهم بدورها في ترسيخ هذه الصورة عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية.

ولكون الثقافة الشعبية غنية الروافد، والبحث فيها ليس بالأمر الهين، إذ يتطلب الاضطلاع الواسع على المصادر العديدة والمراجع المتنوعة، وما يرتبط بالذاكرة المتداولة جيلاً عن جيل، فإن أية محاولة لمجرد مسحها بجميع مكوناتها في بحث واحد لايفي بالهدف، ويعتبر تجنياً عليها لغزارتها وغنى محتوياتها، لذا آثرت الاختصار على الامثال الشعبية والليالي العربية لكونها تؤسس فكرياً وأسطورياً للعلاقة بين المرأة والرجل، وعبر بعض الابيات الشعرية فيما هو مكتوب، لكونها ترسم صورة المرأة من زاوية الشاعر أو الناظم الخاصة، كمحاولة لاستخلاص واقع المرأة من خلالها.

كلمة مثل مأخوذة من العبرية، ومعناه الحكاية أو الأسطورة. وهي من المواضيع الأكثر شيوعاً لارتباطها بعالم الغيبيات وقصورها على الارتباط بالواقع الملموس. نقل مسكويه (ت 421) عن أبي حيان التوحيدي (ت 400 هـ) "إن الأمثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس ثم تدركه، والسبب في ذلك أننا أنسنا بالحواس، والفننا لها منذ أول كونها، ولأنها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرها. فإذا أخبر الإنسان بما لا يدركه، وحدث بما لم يشاهده، أو كان غريباً عنه، طلب له أمثالا من الحس، فإذا أعطي ذلك أنس به وسكن إليه لألفه له¹. وفهمت العرب الأمثال على أنها حكايات تساق للاعتبار لما يتمخض عنها من دروس وعظات، ولما لها من وظيفة لا تنكر في التأثير والافئاع، ولا يخلو منها القرآن الكريم. يقول الجاحظ "ولن تجدوا وصايا أنبياء الله إلا مبنية الأسباب، مكشوفة العلل مضمرة معها الأمثال² وتكمن أهميتها كجزء من تراث الشعب في قدرتها على تصوير البنية الروحية والفكرية والتربوية للمجتمع، رغم كلماتها البسيطة الساذجة في بعض الأحيان، والعميقة الدلالة بمحتواها - لكونها لا ترتبط بزمان ولا بمكان معين وإنما هي وليدة معاناة، أو صورة لبعض أساليب الحياة، أو نتيجة لعادات أصبحت جزءاً من الأعراف والتقاليد، عبر الإنسان من خلالها عما يخالجه نفسه من مشاعر (...). حبل بالحوادث التاريخية والحقائق الخلقية المنظمة للمجتمع، مما يكسبها الصدق في التعبير والقدرة على النفاذ إلى قلب الإنسان العادي أو العالم المحنك، كما أن لها قداسة وسلطاناً على النفوس. ومن الخطأ كما يقول مالنسكي أن ينظر إليها على أنها مجرد شكل من أشكال الفلكلور، أو مستندا إثنوغرافيا خاصاً بأحوال الشعوب، وإنما هي

1 - الدكتور عبد المجيد قطامش الأمثال العربية، دراسة تحليلية ص 154

2 - أبو عثمان الجاحظ : رسائل المعاش والمعاد ص 97

* من أقوال الجاحظ.

في الواقع عمل كلامي يدعو قوة معينة إلى التحرك، وفي اعتقاد الذين يصدر عنهم هذا الكلام أنه يؤدي إلى أقوى أنواع التأثير على مجرى السلوك الانساني³.

وتتجلى أهميتها في كونها واقعية، بشرية، تسبق وجود الافراد، وتبقى بعد فنائهم، تريح النفس بما تنطوي عليه من حكمة وفلسفة علمية وخلقية، سريعة النفاذ إلى النفوس كما إلى القلوب والعقول، لأنها في الغالب منسوجة في جمل قصيرة نتيجة تجارب طويلة، واضحة المعنى، جرسية النغمة، ذات وقع طيب على السمع، والسمع أقصر الطرق لاصابة الهدف، كما أنها لغة الشعب بجميع طبقاته ومستوياته، تعكس مظاهر حياته وأسرارها اليومية المعيشة بجوانبها المتشعبة. وهي عند ابن المقفع "تعمر طويلا وهي أبقي من الشعر وأشرف من الخطابة" تستمد بقاءها من المنظومة المعرفية للمجتمع الذي تفرض عليه أنماطا ثقافية معينة عن طريق عملية ترويض أفرادها للتعايش معها.

وما أنت الامثل سائر يعرفه الجاهل والغابر

وتفاوتت حظوظ الامثال من حيث الشهرة والذبوع، غير أن المتعلق منها بالمرأة كجسد وقول وسلوك وفعل حطمت الرقم القياسي في مصنفات العرب.

3- أحمد عيسى : مجلة التراث الشعبي ص 101 السنة 1979

"كمجبر أم عامر" "كالفخرة بعددج ربها" "أعزم من أم قرفة" 4 "أعز من الزباء" 5 "أعلم من سجاح" 6.

ويظهر الحمى ظهر أول تنظيم طبقي اجتماعي عند عرب الجاهلية، والحمى هي النواة الأساسية لتحديد مفهوم الملكية الخاصة، وهو نوع من التملك المتولد عن حق الاستيلاء بسبب القوة أو الزعامة أو الاغتصاب. ويطلق اسم الحمى على المكان المحمي لوجود الاله فيه، وحرمة الاله يستمد قوته من قوة المسيطرين عليه.

منعنا أرضنا من كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كي يسلبوهم فحالت دون ذلك السيوف

ثم صار الحمى ملكا لسادات القبائل لكونهم الأقدر على إحياءها باستخراج الماء من الأرض التي لا ماء فيها "الأرض الموات" وتتحول بذلك إلى أرض نافعة ذات مياه متدفقة، ويسيطر حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكا له أينما وجدت، قريبا أو بعيدا من العمران، تدر عليه الأرباح الكبيرة وتمكنه من بسط سلطانه عليها، وبهذه الكيفية نشأت الملكية بين القبائل 7.

4 - ابن منظور: اللسان العربي حرف قرف الدرة الفخرة ج 1 ص 302

5 - الزباء: امرأة من العماليق كانت ملكة الجزيرة العربية غزت مارد والابلق

6 - سجاح: امرأة من بني تميم ادعت النبوة حين ادعاها مسيلمة الكذاب، وانجحت له فخلت به وتزوجته وقال فيها

ألا قومي إلى المخذع فقد هيأنا لك المضحج

فإن شئت سبقناك وإن شئت على أربع

وإن شئت فقي البيت وإن شئت فني المخذع

فإن شئت بثلثه وإن شئت به أجمع

فقالت بل به أجمع لأنه أجمع للشمل تاريخ الطبري ج 3 ص 273

7 - جواد علي، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام المجلد 7 ص 130 دار العلم للملايين مكتبة النهضة بغداد 1971

بعد أن كانوا شركاء في الماء والكلا والنار. قال (ص) لا تبيعوا فضل الماء، ولا تمنعوا الكلا فيهنزل الماء ويجوع العيال. ولا يتاجر في الأرض طبقا لحديثه (ص) فيما رواه الخباب «يؤجر العبد في نفقته كلها إلا ما كان في التراب»، وفي رواية «كل نفقة يتفقها الفرد يؤجر عليها إلا ما كان من نفقة في التراب»

ووصف القرآن الكريم العرب بالحمية والكبرياء وشدة التعصب والانفعال وعدم الانضباط «اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية»⁸.

ومن مظاهر الحمية عند العرب الدفاع عن النساء وحمايتهن في الحرب كما في السلم لأنهن "لم على وضم" كما يقولون، ومنعهن من الاسرار والسبي. يقول علقمة في يوم ذي قار

من فر منكم فر عن حريمه

أو دب منكم دب عن حميمه

وجاره الأدنى وعن نديمه.

وكلمة حريم حسب القاموس العربي تعني ما دخل في الدار مما يغلق عليه الباب، وتعني كذلك ما يضاف إليها، وكان من حقوقها ومرافقتها. والاصل في الكلمة هو التحريم والحرمة الذي يقابل الحلال في المعنى. والحریم بالمفهوم الديني معناه حرمة الرجل وهي حرمة وأهله، وما يقاتل عنه ويحميه. والحرمة هي المهابة وما لا يحل انتهاكه. وحریم الرجل هم نسأؤه وعياله. فكلمة الحریم مصدرها التحريم والحرمة والحرام الذي يعني في معناه الشامل ارتكاب المعصية باشكالها المعروفة كالاغتصاب والسرقة وانتهاك

8 - سورة الفتح الآية 26

ما يملكه الغير. والحريم قبل ظهور الاسلام، ووفق عادات أهل البادية يعني النظر إلى المرأة على أنها متاع شخصي، لا يجوز لأحد أن يراها داخل وخارج الخيمة. وبمجيء الاسلام وإقراره مبدأ الحفاظ على كيانها وصف العرب المدافع عن النساء وأعراضهن بحامي الديار، أو حامي الحقيقة. وسميت المرأة حقيقة لأنه يحق لأهلها الدفع عنها. والدفاع عن الحريم من صفات الحر الكريم. يقول أوس بن حارثة لابنه مالك.

"يا مالك إن كرم الكريم الدفع عن الحريم"

يا بني : "إن أمثل القوم تقيه الصابر عن الحقائق والدائد عن الحريم" والكريم عندهم لا يحق له التقاعس عند انتهاك حرمة .

"لا بقيا للحمية بعد الحرائم"

وذكر الحرمة إهانة لا يتحملها العربي .

"كل شيء مهمة ما خلا النساء وذكرهن"

والحريم لا يشمل النساء القريات فقط بل الجميع .

"كل ذات صدار خالة"

يقول عمرو بن كلثوم

إذا لم نحملهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيننا

والمرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام لا تحمي الذمار ولا تمنع الحمى، وإنما كانت ضمن أهداف غارات العدو، وتورث القبيلة العار والهوان والذل إذا سبيت لذا منعوها من الارث.

"لا نورث من لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكي عدوا"

فمعيار التوريث هو القدرة على الانتاج وتحمل المسؤولية، مع أن الأوضاع الاجتماعية لم تكن تعرف الاستقرار، ولم يشكل العرب وحدة

سياسية اجتماعية منظمة، بل كانت التقسيمات حافزا لنشوء مجتمعات تضم طبقات اجتماعية متباينة، وفئات متميزة تمارس بعض الأنشطة الاقتصادية كالصيد والرعي والتجارة والصناعة. فكان منهم متحضرون يعيشون في اليمن ومدن الحجاز كمكة، والمدينة، والبتراء، وحمير، وتدمر كمراكز تجارية، وبدو متنقلون مع إبلهم وقطعانهم بحثا عن الماء والكلا يظلون في الحمى الواسع (...). وكان وجود المرأة يختلف من فئة لأخرى موازاة مع ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية لمجتمعها، ويبقى التهميش هو السمة المميزة لوضعها رغم مشاركتها في مختلف مناحي الحياة، من خلال ما تقدمه من الصناعات الغذائية والنسيج والأواني الفخارية وبعض الصناعات الطبية كجبر العظام وصناعة العطور والأسلحة كالرماح، وممارسة التجارة مباشرة دون وسيط أو بتوظيف أموالها. وتبقى مسؤوليتها رهينة بالنظام والبنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة على توزيع الأدوار التي يكشف عنها قول الشاعر

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول*

ولم تكن مسؤوليتها في الكسب والقتال ترقى إلى مستوى مشاركة الرجل حيث كان الغزو يشكل مصدر دخله الرئيسي يقول ابن خلدون "رزقهم في ظلال رماحهم"⁹.

* سجل التاريخ تمرد بعض النساء ممن أوتين نصيبا من المواهب والمكانة الاجتماعية كزرقاء البهامة وأم هاشم بنت عبد المطلب وأم الكحلبة التي كان يضرب المثل بنجابتها وخديجة بنت خويلد التاجرة المعروفة وميلاتهن اللاتي كن يتاجرن لكن تجارتهن تمر عبر الرجل. فحينما عاد أبو سفيان من الشام وقد سلمت قافلته من محمد وأصحابه التفت حوله نساء قريش لمخاسبته على أربابهن وما صار من نصيب كل واحدة منهن (جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام ط 1 / 1981 دار الحداثة بيروت).

9- ابن خلدون : المقدمة تحقيق عبد الواحد وافي - القاهرة لجنة البيان العربي 1957 / 1961

والمرأة ليس لها أن تدافع عن نفسها، بل لها أن يدافع عنها الرجل لا
أن تحمل السيف لتدافع عنه¹⁰.
فسلطته في العائلة يستمدّها من حق الملكية كقوة أساسية في يده .

10 - أحمد عريدي العبادي في القيم والآداب ص 208 - 209 ط 1976 .

المرأة من خلال الامثال الشعبية

ما هي صورة المرأة من خلال الامثال الشعبية ؟ وكيف حاك الرجل بصفته عنظر الانتاج الرئيسي، الذي يقوم انتاجه في السوق، وبصفته الاكثر خبرة وتعلما، وبصفته حامل السيف والمدافع عن الحقيقة خيوط هذه الصورة ؟

لا يمكن تحليل الامثال الشعبية المتعلقة بالمرأة بعيدا عن المصدر الديني والخرافي كمنبع، منه يختار صانع المثل الادوات والآليات التي تتلاءم ونزعت المتأثرة بالوسط الاجتماعي الذي تربى فيه، وتمثل تقاليده وقيمه واعرافه، والتنظيمات الاقتصادية والظروف الاستبدادية التي عاشها ليصوغ امثالا في قالب دقيق محكم معبر مقصود ومحدد كابداع ثقافي انساني، ومحاولة فكرية تقوم بدور رئيسي في تكوين الثقافة الشعبية، سيما وأن لكل نظام اقتصادي سياسي منظومة معارفه الاجتماعية.

ولا تتوقف وظيفة الامثال عند رسم معالم الحياة الاجتماعية ورصد انماط السلوك الانساني، بل تتمدها إلى تقديم نموذج يقتدى به. ولكون المرأة محور الحياة في البيت وخارجها، فقد تناولتها الامثال في أدوارها المختلفة انطلاقا من التهنية بعيد ميلادها غير المرغوب فيه سعيا إلى التخلص منها :

"آمنكم الله عارها، وكفاكم مؤنتها، وصاهرتم قبرها"*

* يقول الشاعر :

لكل أمي بنت يرجي بقاؤها
فبيت يغطيها وبعيل يصونها
واني وإن سبق إلي المهر
أحب أصهارى إلي القبر
ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهر
وقبر يوارىها وخيرهما القبر
ألفا وعدان وذوعش

واعتبر القبر سيد الأصهار. وإذا سلمت من الموت وهو أكرم لها
"دفن البنات من المكرمات" *
"موت البنات ستر"

فإنها تعيش طفولتها كشيء مهمل تابع كلياً للبيت إلى أن يتخلص
منها عن طريق الزواج كعلاقة اجتماعية تضمن سترها وترريح أهلها من
شرها.

"العائق في الدار عار"
"البنات أما رجلها وأما قبرها"
"ضرسك إلا وجعتك قلعتها، بنتك إيلا كبرت ودعها"
"زوج من عود خير من قعود"

ورغم أن الزواج داخل العشيرة هو النمط الشائع في المجتمعات
التقليدية ، فالأمثال تحذر منه

"لا ايسرت ولا اذكرت فانك تدنين البعداء وتلدين الاعداء"
"الاقارب عقارب"
"بعد من دمك لا يظليلك"

وبقاؤها خارج إطار الزواج الشرعي يسيء إلى المركز الاجتماعي
للعائلة لذا يفضلون الانفاق عليها وعلى الذي سيكفيهم همها .

* يقول الشاعر

تهري حياتي وأهوى موتها شفقاً
والموت أهوت نزال على الحرم
فالآن نمت فلاحهم يورقني
بعد الهدوء ولا حب ولا حكم

"بعد اختي عني وخذ غلتها مني"

هذا العرض الطيب يغري الذي يرنو إلى الزواج ولا حيلة له

"الله يجيب اللي يحسن بنا ، يعطينا بنتو، ويخدم علينا"

"حط الهم بالجرة"

ورغم التأفف منها والاشمئزاز من مقدمها فلا بد من الاعتراف بسعة رزقها حينما يتكاثر عددها بحثا عن الذكر ولو جبرا للخاطر.

"أب البنات مرزوق"

ويظل شبح الخوف من عودتها إلى بيت أهلها بعد الزواج ولو للزيارة يطاردهم لذا يفضلون بقاءها في بيت زوجها مكتفين بسماع أخبارها من بعيد .

"زوج بنتك وبعد دارها ما يجيك غير أخبارها"

وزواج البكر أفضل من زواج الثيب ولو كانت مسنة

"العائق إلى بارت على سعدا دارت"

والأصل الطيب مرغوب فيه ومقدم على المال لأنه عرض من أعراض الدنيا.

"يا آخذ القرد على مالو يروح المال ويقي القرد على حالو"

ولا يقتصر الأصل الطيب على البنت بل يجب أن يتوفر في الأم أيضا لأن "البنت سرّامها".

"خذ البنت من أحضان امها"

”قلب القدرة على فمها والبنت تشبه امها“

وتحذر الامثال من المرأة الجميلة وان كان الانسان بفطرته يميل إلى كل ما هو جميل في الكون (...) ذلك لأن الاطمئنان إلى اخلاقها واخلاصها وثقتها مستبعد، فإعجابها بجمالها قد يدفعها إلى التعمالي والغطرسة والاعجاب بالنفس أو اعجاب الآخر بها، وتصبح مصدر تعب لزوجها

”خنقوسة تنوس خبير من غزالة تهوس“

أما مقاييس الجمال المرغوب فيها فهي تلك التي لا يمكن أن يطلع عليها إلا الزوج.

”لما المرغبة بحال الدار المذهبة“

”الخبز من الزرع والبقرة من الضرع والمرا من الكراع“

ويبقى الحياء من الصفات التي يجب أن تتوفر فيها

”زين المرا في ضيائها وزين العاتق في حياها“

”لا حيا ولا من يجي بكري“

ورغم كل ما يمكن أن تغدقه عليها الامثال من النواقص والعيوب والتخوف من سلوكها فإن تواجدتها في البيت أمر مرغوب فيه، بدونها يتحول إلى خراب ودمار

”المرا عمارة ولو تكون حمارة“

ويجوز استشارتها لكن مع العزم مسبقا على عدم الأخذ برأيها ألم توصف بأنها ناقصة عقل! و!!!

”شاوروهن وخالفوهن“

"شاورها، لاتعمل بريها"

"طاعة النسا ندامة"

"الراجل بن الراجل الي عمرو ما يشاور مراته"

لا تتردد الامثال في اختزال كيان المرأة الغني والمتعدد الابعاد وتحويلها إلى مجرد آلة للتفريخ وأداة للانجاب الذي يعتبر الغاية الاولى من الزواج. بواسطته تضمن استقرار الزوج في البيت، ودوام الحياة الزوجية، وترتفع مكانتها في الاسرة، خصوصا إذا هلّ ولي العهد. وتكراره يتجدد شبابها ونضارتها.

"من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها"

"الامهات أوعبة"

"انجب من خرشب"

"انجب من خبيثة"

"انجب من ام المؤمنين"

وهؤلاء نساء انجبن سادة ورؤساء

"ياللي عاجبك الزين واللباس، رد بالك للحباله والنفاس"

وإذا عجزت عن الانجاب فلا قيمة لها ، ولا فائدة ترجى من ورائها فأنوثتها تقدر بالخصوبة، ويجب استبدالها بغيرها، أما إذا كان العاجز عن الانجاب هو الزوج فعليها أن ترضى بنصيبتها وتستكين لقدرها وترحب بالتي ستدخل ضرة عليها.

”المرأ بلا أولاد بحال الخيمة بلا وتاد“

وارتبط مفهوم الجنس بالتناسل في ثقافة لا ترى في المرأة سوى مجرد سلعة انتاجية، وتعجز عن النظر إلى الجنس كفعل انساني يرتبط بكيان الانسان من أجل قوة النشاط الفيزيولوجي والعقلي والروحي، فالطبيعة خلقت الرغبة الجنسية لاجداث عملية النمو والارتقاء، ودفعها إلى الأمام، والتناسل ليس سوى إحدى وظائف الجنس المتعددة الشاملة لكل مكونات هذا الإنسان¹¹ تحت تأثير اسطورة الاتحاد الاولي بين السماء والارض. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الاتحاد في قوله تعالى : «أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون»¹².

وربط الانسان منذ البداية بين خصوبة الارض وخصوبة رحم المرأة وكلاهما ضرورة حياتية : خصوبة المرأة بالانجاب ؛ - والانجاب يجدد الانوثة - من أجل العمل وحفظ النوع، وخصوبة الارض من أجل الغذاء لضمان البقاء.

يقول تعالى : «نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم»¹³

وعن طريق الفعل الجنسي تتم عملية الحرث والارتواء بالحيوان المنوي لتحصل عملية الانجاب.

وعن طريق حراثة الارض بوضع البذرة تتم عملية الزراعة. فالحرثة قاسم مشترك بين الارض والمرأة، وسلبية هذه الاخيرة في العملية الجنسية

11 - الكسيس كاريل : ”الانسان ذلك المجهول“، ترجمة عامل سفيق ص 78

12 - سورة الأنبياء الآية 30

13 - سورة البقرة الآية 23

واضحة قد تتخلص منها نسبيا بتأمين الوريث الشرعي للزوج، وإلا فوضعها يفسره الحديث "الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد".

"المرأ بلا ولاد بحال الحيمة بلا وتاد"

وتنشأ الفتاة منذ صغرها متشبعة بهذه المفاهيم التي تنقشها الأسرة وبصقلها المجتمع في ذهنها، وتسيطر عليها لدرجة اقتناعها أن دورها في الحياة يتحدد بالزواج والقدرة على الانجاب وتتضاءل بقية الأدوار في عينيها.

لم تغفر الأمثال للمرأة كونها الأداة التي اتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر، بل تعتبر الشيطان ثالث الجنسين، وبالتالي فالأطمئنان إلى سلوكها غير وارد وتمهدها بالتقويم والتهذيب لضبطه بكيفية تدريجية أمر لا بد منه.

"الضربة للسارية والمعنى للجارية"

"علق عصاك حيث يراها أهل الدار"

"انتر الصريمة" (تحكم في مقود الدابة)

"أمرأ بحال السجادة ما تنظف غير بالخبيط"

وكلما حاولت التمرد أو الخروج عن الحدود التي سطرت لها يزداد التفنن في عقابها بما هو أقسى من مجرد الضرب المادي إلى الضرب المعنوي بإذلالها وإحباطها عن طريق الزواج بأخرى أو الطلاق أو الإهمال والإكراه

"مرأة المنحوس، ماهي مطلقة، ماهي عروس"

"أضرب المرأ بأمرأ ياولد مرأ"

حك المرأ بأخرى*

* المرأ: وثيقة الطلاق

* جثها بضرة

ألصقت الامثال بالمرأة الخيانة والمكر والغدر مما يورث عند الرجل الشك والغيرة والوساوس.

”ألى سلمت البنت من العار تجيب العدو للدار“

وهذه النقائص لا تحول وعشقها، بل الإكثار منها إشباعاً للغريزة (...)
ذلك أن فحولة الرجل تقاس بالقدرة الجنسية التي يعكسها التعدد الذي يؤكد القدرة اللبديدية والرغبة في التجديد، فالعربي والملل لا يلتقيان .

صاحب واحدة اذا مرضت مرض واذا حاضت حاض

صاحب اثنتين بين جمرتين ايهما ادر كته احرقته

صاحب ثلاثة بيت كل ليلة في تربة

صاحب اربعة عروس كل ليلة

من داخل الثقافة العربية يمارس على المرأة القمع النفسي والمعرفي والجنسي لاشتمالها على ما يكفي من الآداب الاجتماعية والمبادئ الشعائرية لانماء ذهنية معادية لها (القتل، الخطف، الاغتصاب، الضرب، التعدد، الطلاق، الختان، الحجاب ...) والمثل كمنظومة معرفية وكحلقة من حلقات فكرية وموقفية تستخلص من الفعل الاجتماعي وتتواصل معه وتحمل مفاهيمه التي تنال منها ومن انسانيتها وكرامتها وإن صادف وجود الفضائل عندها فمردها إلى الرجل الذي احسن تعهدها.

”الفرس من خيالها والمرأ من رجالها“

والرسول (ص) يؤكد أن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة. وفي القرآن وزين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة

من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحراث ذلك متاع
الحياة الدنيا» ١٤ .

ما يستهوي الرجل ويسلب عقله : النساء، البنون، الذهب، الفضة،
الخيل، الانعام، الحراث.

وسئل أعرابي عن معنى السرور فقال : "دار قوراء، وامرأة حسناء،
وفرس مربوطة بالفناء"

السرور = بيت جميل + امرأة جميلة + فرس

اللذات اربع : البناء، النساء، الطلاء، الحناء

وسبق أن رأينا الخبز، البقرة، المرأة (الكل للاستهلاك)

ورغم ما يمارس على المرأة من أنواع الاهانة والاذلال فلا تملك لنفسها
سوى الخضوع والخنوع والصبر وتحمل نكد العيش للاحتفاظ بالزوج
والبيت، ولو باللجوء إلى السحر والشعوذة والتماس بركة الأولياء
والصالحين، بتقديم الهدايا والقرايين لان حياتها لا تكتسب الاهمية إلا في
فضاء الزواج، خارج هذا الفضاء تفقد جزء من انسانيتهها لذا تلقن منذ
صغرها أن تكون موضوعا للرغبة الجنسية.

المرأة إلى صبرت دارها عمرت

"جهنم زوجي ولا جنة اهلي"

أما المطلقة أو الارملة فلا تنجي في مجتمع يبنى ارتباطه بالمرأة على
إلزامية البكارة غير خيبة الأمل والصراع النفسي لأنها معيار شرفها ونظافتها
واستقامتها. وتحمل مسؤولية هذا الوضع الذي لم تختره وإنما فرض عليها.

إذ بفقدانها الزوج الذي تستمد منه مكانتها واحترام المجتمع تنبذ كالبعير
الاجرب : " أشقى من مطلقة "

"لحم الهجالة مسوس وخأ دير لو الملح قلبي عافو"

بل تتدنى قيمتها لدرجة تصبح معها غير صالحة لا لنفسها ولا لغيرها.

"الهجالة ربات عجل ما فلع، ربات كلب ما نبج"

وفي غياب الزوج الذي تستمد قيمة وجودها فعليها أن تهمل
نفسها وتودع أفراحها لحين عودته.

"هاك الغرايب المرا مكحلة والراجل غايب"، حيث تتكيف ومزاجه.

"الرجال فالحركة غاية والنسا فالديور ساوية .

ومن وصايا أم لا بنتها :

"إياك والاكتساب إذا كان فرحا والفرح إذا كان كئيبا واحفظي عني
خصالا عشرا :

حسن الصحبة بالقناعة ، وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة ، التفقد
لمواضع عينيه ، والتعهد لمواضع أنفه ، الحفظ لماله ، والارعاء على حشمه
وعياله ، التعهد لوقت طعامه ، والهدوء والسكون عند منامه ، لا تفشي له
سرا ، ولا تعصي له أمرا .

ولحساسية العربي للشرف يتم التركيز في مفهومه على حسب المرأة :
عذرية البنت وعفة الزوجة ، ويعلق شرف العائلة كلها على هذا المخلوق
الضعيف الناقص العقل والادراك ،

" المرأة شعر طويل وعقل قصير "

"المرا بنصف عقل "

" الي بغا العذاب يرافق النسا والكلاب "

التابع الملحق كسلعة لها قيمتها في السوق الاجتماعية. ومفهوم الشرف نفسه يكشف عن مفارقات غريبة إذ لا ترتبط حساسيته كما يقول "باتاي" بالاحساس بالذنب أو الاثم عند الخطأ كشعور يتعلق بالفرد لذاته، بضميره ، وإنما هي ترتبط بالاساس بالحزي أي بعلاقة الفرد بالآخرين. ومن ثم فإن أمرا مخلا بالشرف يمكن أن يمرَّ بهدوء دون أن يسبب انزعاجا إذا لم يصل إلى علم الآخرين فما يهم ليس أن يكون الانسان راضيا على نفسه بل أن يحافظ على "ماء الوجه" كما أن صراع القيم والاخلاق يخضعان لسلطان المادة والجاه. فقد اشتهرت هند بنت الحس بالزنا وكل ما عوقبت به هو اللوم اللطيف الذي لا يחדش الشعور.

"اشغل من ذات النحين" 15

"رويد لغزو ينمزق" 16

" بمثل جارية فلتزن الزانية سرا وعلانية "

وتشطر الامثال المرأة بين الزوج والحبيب فله

النصف الاسفل وللحبيب النصف الأعلى.

قيل لأعرابي : ما الذي ينال أحدكم من عشيقته إذا خلا بها ؟

قال : اللمس والقبل والحديث

15 - الميداني المجمع ج 1 ص 375

16 المستقصى ج 1 ص 99 - الميداني المجمع ج 1 ص 376

قيل له : فهل يطرؤها

قال : بأبي أنت وأمي ليس هذا عاشق بل طالب ولد. 17

وسرعان ما تخون الزوج ولا تعباً بالنتائج

"لاتأمن المرأة على أي رجل مهما كان مسناً ودميماً"

ولا تكتفي الامثال كنواة لإيديولوجية ذكورية بالتحامل على المرأة
وإغراقها في بحر من النقائص، على رأسها الخيانة والغدر وسوء المعاملة،
والتخويف من سلوكها الانثوي المتنوي وطبيعتها المائلة للانحراف، بل تصر
على ختنائها للقضاء على شهوتها المتاحجة

"امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة"

"الى بغا العذاب، يرافق النساء والكلاب"

" تقول للجن اطلع ولا نهبط لك"

"يا ابن مقطعة البصور"

"اعص هواك والنساء واصنع ماشئت"

"كل بلية سببها ولية"

ولو طفت العالم كله ما وجدت يئنهن صالحة، لأن الغالب عليهن
سوء الخلق.

17 - وقال الشاعر :

فللخل شطر مطلق من عقاله وللبل شطر ما ينال منيع
وأنشد أبو عمرو بن العلاء ولها نصفان من حل وبل
و نصف كالبحيرة ما يهاج

"مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الاعصم بين مائة غراب".

ولا تتردد الامثال في اغراقها في أنماط انحلالية . أما الشر فملازم لها في حبها وفي بغضها .

المرأة إذا أحببتك أذتك

وإذا بغضتك خانتك¹⁸ .

أما جسدها فيبقى من أهم المحاور التي تناولتها الأمثال، وأولته أهمية كبرى. وتتناوله في أدق تفاصيله خصوصاً الآلة التي "تنتج" الولد وتمنح اللذة، وهو اهتمام الرجل في الواقع لأن الأمثال السائدة في المجتمع حول المرأة هي أفكاره، بصفته عنصر الانتاج، والاكثر خبرة وباعتبار أنها تشكل تابعا يتحكم فيه بشتى الطرق. أمثال لا يمكن تحليلها بعيدا عن الوضع الاقتصادي الاجتماعي السياسي، والظروف الاستبدادية عبر مسيرة

18 - بقول الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك فلا تكن

جزوعا إذا بانث فسوف تبين

وإن أعطتك اللبان فإنها

لغيرك من طلابها سوف تلين

وخنها إذا كانت تفي لك إنها

على قدم الايام سرف تخون

وإن خفت أن ليس تنقض عهدا

فليس تخضوب البنان يمين

وأنشد العقاد :

حب الخداع طبيعة فيها

خل الملام فليس يشيها

ورياضة للنفس يحييها

هو شرها وطلاء زيتيها

وما فيهن مخلص لائف

فما فيهن مخلص لأخرى

تاريخية، تحمل الملامح الفكرية لعصر ما قبل الدعوة الإسلامية، حيث كان للرجل على زوجته وأبنائه حق الحياة والموت وحق البيع والرهن. ويبدو أن المرأة الرمكاء كانت مرغوبة لاعتقادهم أن الرامك بتضييقه القبل يساهم في اخراج الطفل صلب البنية، مما جعل النساء يلجأن لتضييق القبل بواسطة، وحشوه بالصبر المخلوط بالرامك لأنه مبعث شعور الرجل بمزيد من اللذة لينعم برضاهن ويضمن إخلاصهن قبل لأحدهم : أي النساء أحب إليك ؟

قال : "البیضاء وسیمة، الرمكاء جسیمة، هؤلاء امهات الرجال" واستفسرت أخرى طليقها : يا هذا لم طلقتنی وقد كنت لك ناصحة، وعليك مشفقة، وما في عيب إلا ضيق بجيهتي.

قال : "لو كان الضيق في حيرك ما طلقتك."

وقيل لأخرى طلقت مرارا مالك تطلقين أبدا.

قالت : "يريدون الضيق ضيق الله عليهم."

وتعكس الامثال سطحية العلاقة القائمة بين الجنسين والمبنية أساسا على الدونية والسلبية والتشبيء مما يدفع المرأة إلى المزيد من الاهتمام بجسدها أكثر من اهتمامها بعقلها لتطفي شهيتها ولتزداد الرغبة فيها، لانه لا حيلة لها سوى التكيف والخضوع في مجتمع ينتج ثقافة ذات نزعة يجبرها على الاقتناع بسلبيتها التي تعود إلى جنسها الانثوي، وصلاحتها الذي لا يتعدى ضمان النسل والاستمتاع المركز حول ذاتها لكونها سجينه الافكار السائدة.

"قري ولدك فوق الحصير، وقري امراتك فوق السرير"

وقال أعرابي : أفضل النساء ، أطولهن إذا قامت،

أعظمهن إذا قعدت،

أصدقهن إذا تابت،

وإذا ضحكت تبسمت،

وإذا غضبت حلفت،

التي تطيع زوجها وتلتزم بيته،

العزيرة في قومها الدليلة في نفسها ،

الردود الولود التي كل أمرها محمود.

وحينما خطب الرسول (ص) عائشة كانت نحيفة فأرادت أمها أن
تسمنها لدخولها فاطعمتها القناء بالرطب، فسمنت كأحسن السمن .

وسأل مالك الاشر علي ابن ابي طالب،

كيف وجد أمير المؤمنين امراته ؟

قال : كخير النساء إلا أنها جبّاء.

قال : وهل يريد الرجال في النساء غير ذلك.

قال : لا حتى تدفئ الصقيع وتروي الرضيع .

وقيل في محاسن المرأة : مدمجة الخصر، لذيدة العناق، طيبة النكهة
حلوة العينين، ساحرة الطرف، كأن سرتها مدهى، وكأن فاها خاتم، وكأن
ثديها حقان، وكأن عنقها ابريق فضة.

وأقل ما يكون التمتع بها أربعون عاما، أما إذا تعدتها فيجب القاؤها
في سلة المهملات .

"فإذا أردت التفخيد فارداف وثيرة وأعجاز بارزة، وإن أردت العناق فالثدي النواهد."

وقال عبد الملك بن مروان الذي أصيب بالتحمة في سوق الجوارى وبيوت الحرائر: "من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أرادها للولد فليتخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليتخذها رومية."

أكثر من ذلك جرد الموروث المرأة من الصفات الروحية

تكره ذكر الله في بيتها

وهي إلى الفحشاء مشتاقة

إذا ذكر الخير فمالها

من جمل فيه ولاناقة

مقدمة في الشر سباقه

وهي تبغي الله على فاقة

وألقى دورها الفكري والانتاجي مركزا على مفاتها ومواقع الجمال فيها كموضوع جنسي لا غير.

"ماللنساء والخطابة والكتابة"

"هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابة"

وبلغ الترف والغناء والخمر أقصاه في بلاط الأمويين الذين حولوا المرأة إلى قطيع يقول صلاح المنجد

إن الخليفة هشام بن عبد الملك قد تمتع بالنساء حتى قال :

"أتيت النساء حتى ما أبالي أتيت امرأة أو حائطا"

وقبل هذه المرحلة التاريخية استطاعت أميمة بنت الدمينه أن تنقل في عتابها صورة المجتمع عن المرأة في شعر أنيق حينما تجنى عليها حبسها الذي زارها بعد غياب ؛ وهو دفاع لا يدخل في صميم قضايا المرأة التاريخية.

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني واشمت بي من كان فيك يلوم
وابرزتني للناس ثم تركتني لهم عرضا أرضي وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجنس قديدا فجسمي من أقوال الوشاة كليم
ولم يكتف صانعو الامثال من تشطير المرأة وتصنيفها وتشبيهاها، بل
صاغوا أمثالا على لسانها تعترف فيها بأخطائها وأحقية الذكر عليها في
الرعاية والحماية المتحققة تاريخيا عبر امتلاكه كل شيء وترويض الطبيعة
بقوة العمل والثقافة والتشريع وفقا لأغراضه ومصالحه.

”لو كان الخير في ما يتزوج رجلي علي“

فسيفساء مفرقة من الامثال نحتها الرجل تحت تأثير نزعة ليحيى
تفوقه المكتسب عبر التاريخ وليعزز مواقفه في الحاضر والمستقبل، تبدو من
خلالها المرأة غائبة عن واقع مجتمعتها، مبعدة عن قضاياها التنموية، لا تحيا
وجودها بقدر ما تتحول إلى ظل للزوج ومجرد صدى له بادلة وبكل
سذاجة الجهد لتتلاءم داخليا وخارجيا مع ذوقه مصححة نفسها وفق
متطلباته.

قد تكون في أصلها إنتاجا فرديا، لا أساس له في الواقع التاريخي،
لكنها تتضمن ما يكفي لاتماء ذهنية التباسية معادية للمرأة.

هذا التراكم التراثي في شطره الكبير يمسح شخصيتها وبطبعها وفق
منهج تلفيقي - تلطيفي - بتناقضات وثنائيات متناغمة (النجاب، عقم، خير،
شر، قبح، جمال، طاعة، تمرد بكارة ...) استمد منه مشروعيته منذ نشوء
”الحسنى“ ومن العادات والتقاليد والقوانين التي ضخمت الفروق وبعدت

المسافات ،مدعمة بثقافة قمعية سلطوية تجبرها اما على التبعة
أو الاقصاء !! أن تكون موضوعا جنسيا أو لا تكون حسب تعبير هشام
شرابي. فإذا سلمنا أن المرأة تخلق المتاعب فلم لا نسلم أن الرجل كذلك.
وإذا سلمنا أنها مطبوعة على الحيانة والغدر فلم لا نسلم بأنه هو كذلك،
أليست طبيعتها الانسانية سابقة عن الطبيعة الانثوية !! فشخصية الانسان
ذكرا كان أو أنثى هي نتاج التنشئة الاجتماعية والثقافية والحضارية، والتربية
التي ننشئ عليها أطفالنا تؤسس للتباين والتمييز بين الجنسين. فمن الترانيم
التي تغنى للبنات :

كريمة يحبها أبوها ،

مليحة العينين عذب فوها،

لا تحسن السب وإن سبوها.

ومن الترانيم التي تغنى للأطفال :

ثكلت نفسي وثكلت بكري،

إن لم يمد فहरا وغير فهر،

بالحسب الفدّ وبذل الوفّر.

وتعمل التنشئة الاجتماعية على إدخال القيم والعادات في نفس الفرد
بالشكل الذي ينسجم والثقافة التي يعيشها فينشأ معتزا بها منذ طفولته، لا
يستطيع التخلص منها لأنها تغلغلت في نفسه ووضحت من مكونات
شخصيته الرئيسية، وتظل المرأة بالرغم منها حارسة أمينة لهذه العادات
والثقاليـد وأنماط السلوك، تلقنها لأطفالها عبر الحياة اليومية، لتساهم وبعمق
في مقاومة أي تغيير وتحديث، فمنح نربي المرأة على أن تفهم الرجل وتلبى
طلباته وحاجياته لا عن رضا واقتناع بل عن اضطرار وقهر.

”العين ما تعلا على الحاجب“

وإذا حدث خلاف بين الاثنين نبحت عن الخطأ في جانبها أولاً ولا تنجبه صوبه إلا إذا تعذر وجود ما يدينها.

ونربي الرجل على أن تفهمه المرأة وتخدمه وعندما يصدر منه خطأ ننسج له الأعذار ، نحن النساء كأمهات أو أخوات أو خالات أو عمات.

وهذه إشكالية ليس من السهل إيجاد حل لها. لأن التغيير على المستوى الثقافي لا يحصل بقفزات ؛ والتغيرات الفكرية السريعة التي تطرأ على شعب من الشعوب لا تلبث أن تزول بزوال الظروف التي أوجدتها، لتعود إلى تقاليدها السابقة.

ومهما بلغت سماحة الرجل وكيف ما كانت ثقافته ووعيه فهو لا يزال غير مستعد للتنازل بسهولة عما أورثته إياه قرونا من التحكم في المرأة، وضمنيا ما أورثه لنفسه يوم كان يتحكم في حياتها طبقا لمعطيات استبدادية تسلطية معروفة في التاريخ القديم !!

شهرزاد وانهار دماء شهریار

وإذا كانت شهرزاد قد سكنت عن الكلام المباح فإن الحديث عن المرأة كقضية اجتماعية سيستمر إلى الأبد متجاوزا حدود الزمان والمكان.

حينما نريد استلهام الموروث الشعبي برموزه الفنية والاسطورية تأتي ألف ليلة وليلة، وهي من ماثوراتنا الخالدة في الصدارة، باعتبارها ثمرة الابداع الشعبي العربي الاسلامي الذي يعكس آلامه واحلامه وتطلعاته ومثله العليا، وتكشف عن ملامح البيئة العربية بقسماتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والنفسية في العصر القروسطي. وباعتبارها سجلا لذاكرة الماضي وما يحفظه من أصالة نقف من خلالها على حياة المجتمع ونمط تفكيره، ومعايره الاخلاقية، وعلاقاته الانسانية، ومواقفه تجاه الافراد حيث تبرز المرأة في السمة الهرمية المكونة للمجتمع العربي في العصر العباسي - وهي أقرب الآثار الفنية لتكون وثيقة لهذه البيئة، - ضمن القاعدة الأكثر امتغلالا واستعبادا مع الجواري والرقيق والأقنان والعبيد والخصيان. وحيث المراتب الاجتماعية الطبقية واضحة الحدود والمعالم يحكمها التسلط والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، الذي يسود الرواية انطلاقا من قمة هرم السلطة. ولا غرابة في ذلك، فالعصر العباسي عصر توسع تجاري وثقافي، نحصوا عصر الرشيد الشغوف بالعلم والمعرفة والادب والشعر والنساء، وتشجيعه لأصحابه، ولجامعي النواذر (...) وحيث الجنس خاضع

لذوي النفوذ السياسي أو التجاري : "في مدينة ميتة يتوغل فيها أبطال الحكاية ورواتها وجماهيرها ليغرقوا في جواهرها وأكياس يواقيتها ويتمتعوا بفراشها الوثير ودياجها وترفها، ويتلذذوا بشمارها وعيونها وخمورها وجمال جواربها وقصورها الرخامية والفضية والذهبية" ¹ .

وإذا كان من الصعب إعادة تركيب النسيج المشكل للمحيط الاخلاقي والسوسيوثقافي الذي انبثقت عنه الليالي فمن المؤكد أنها خلاصة مركزة لحياة العرب المسلمين في فترة زمنية معينة تجلى فيها بوضوح شكل الحكم الذي يسوده بعد طبقي يمثل الملك قمة هرمه، فالحكام، فالحاشية. فعموم الناس. ووجد هذا التباين المكشوف تبريراته في الركام الاسطوري رغم المكانة الاجتماعية والثقافية العالية لاصحابه.

تؤسس الليالي فكريا وثقافيا واسطوريا للعلاقة بين الجنسين حيث المرأة في هذا المجتمع السلطوي تبحث عن مكان لها في الحياة.

فانطلاقا من الليلة الاولى إلى الليلة الواحدة بعد الالف، كان الصراع قائما بينها وبين الرجل، مادته الجنس، الريح أو الخسارة، التحرر أو البقاء، بقاء الجنس الانثوي الذي كان مهددا بالانقراض على يد الطاغية شهريار الذي فرض عليه قدره ... واتخذ هذا الصراع طابع التحدي والتكافؤ : صراع الحب والموت، صراع الطبقات.

* تحكي الليالي قصة أخوين ملكين عاش كل واحد منهما في مملكته مدة عشرين عاما.

* يشاق الاخ الكبير لأخيه فيبعث وزيره يطلب منه زيارته. يخرج الملك شاه زمان طالبا بلاد أخيه، في نصف الليل يتذكر حاجة نسيها (خمرزة الملك)، يعود إلى القصر ليأخذها فيجد زوجته راقدة في فراشه مع عبد أسود.

* تسود الدنيا في عينيه : زوجته، ملكيته الخاصة تعانق غيره، ومن !
عبد من عبيده ! يفكر : إذا كان هذا قد حدث وأنا لم أغادر المدينة بعد،
فكيف حال هذه العاهرة إذا غبت مدة طويلة.

* يسلم سيفه، ويضرب الاثنين معاً، ويقتلها في الفراش .

* يواصل رحلته إلى أن يصل إلى مدينة أخيه والحادث الدرامي ينخر
جسده في صمت(...) يصفر لونه، فيظن أخوه أن السبب هو بعده عن أهله
وحنيه إلى مملكته.

* يصارحه يوماً قائلاً : يا أخي إن بداخلي جرحاً .

* ينظم الاخ رحلة صيد ويقترح عليه الخروج معه عله يجد في ذلك
ما يساعده على الشام جرحه واستعادة نشاطه، يابى الخروج ويفضل البقاء
في القصر.

* وإذا المشهد نفسه يشكر أمام عينيه، زوجة أخيه تفعل ما فعلته
زوجته.

* بينما كان يطل من شبايك القصر المشرفة على بستان أخيه، رأى
زوجته وكانت آية في الحسن والجمال، تمشي وسط عشرين جارية وعشرين
عبداً، حتى إذا وصلوا إلى فسقية، خلعوا ثيابهم وجلسوا إلى بعضهم
البعض، وإذا بزوجة شهربار تنادي يا مسعود !

* يحضر عبد أسود فتعانقه ويمانقها، وتواقعه ويواقعها، كذلك باقي
العبيد فعلوا بالجواري. وما زالوا في عناق وتقبيل وغيره حتى ولى النهار !!

* بلية أخيه خفتت من بلواه، فاستعاد حيويته ونشاطه مما جعل أخوه
يسأله عن السر فيحكى له ما رآه.

* يتظاهر شهريار بالسفر قصد الصيد، ويأمر غلمانه بعدم الكشف عن مكانه لأحد، يتنكر ويقيم مخفيا في القصر مع أخيه.

* وإذا الاخوان يشاهدان معا ما تفعله الزوجة مع العبد، لكن شهريار يتحكم في نفسه ولا يقتل زوجته كما فعل شاه زمان.

* يخرجان معا ضاريان في الارض لمعرفة هل جرى لثلهما من الملوك ما جرى لهما. لا حاجة لهما بالملك بعد خيانة المرأة لهما !! زناها أفضع من الموت ! حتى إذا وصلا إلى شجرة عند ها عين ماء بجانب البحر، اقتربا من العين وجلسا يستريحان. وإذا البحر قد هاج فصعدا إلى الشجرة.

* وإذا بجني طويل القامة عريض الهامة، واسع الصدر قد خرج من البحر المتلاطم الأمواج، على رأسه صندوق. اتجه نحو الشجرة وجلس تحتها وفتح الصندوق، أخرج منه علبة، ففتحها، فخرجت منها صبية عذراء بهية كأنها الشمس المضيئة. ووضع رأسه على ركبته ونام.

* رفعت رأسها إلى الشجرة فلمحت الملكين، وأشارت عليهما بالنزول، والا نهت عليهما الجني فيقتلهما شر قتلة.

* نزلا خوفا منها وراودتهما على نفسها، وهددتهم بالعفريت إذا لم يطيعا ويفعلوا معها ما سبق أن فعلته زوجة كل واحد منهما مع عبد أسود.

* نفذا ما أمرتهما به خوفا من العفريت. فلما فرغا قالت لهما : قفا. واخرجت من جيبها كيسا، واخرجت منه عقدا فيه خمس مائة وسبعون خاتما، فقالت لهما : أ تدرون ما هذه ؟ قالا : لا. قالت أصحاب هذه الخواتم كلهم كانوا يفعلون بي على غفلة من هذا العفريت، فاعطيني خاتميكما انما الاثنان. فاعطياها الخاتمين من أيديهما فقالت لهما : إن هذا العفريت اختطفني ليلة عرسي، ثم وضعني في علبة، ووضع العلبة داخل الصندوق. ورص على الصندوق سبعة أقفال، وألقاه في قاع البحر الاجاج المتلاطم الامواج ويعلم أن المرأة منا إذا أرادت أمرا لم يغلبها شيء.

* كلاهما وقع منهما وقع النار على سيدنا إبراهيم وقالوا لبعضهما، إذا كان هذا عفرتنا وجري له أعظم مما جرى لنا، فهذا شيء يخفف عنا آلامنا ويسليننا. ثم انصرفا إلى مدينة شهياري، ودخل قصره، ورمى عنق زوجته ثم أعناق الجواري والعبيد.

”وقرر أن يتزوج كل ليلة عذراء، يستهلكها ليلا ويقتلها في ليلتها.

* بعد ثلاث سنوات يصاب الناس بالهلع، إذ لم تبق عذراء في سن الوطء، ويأمر الملك وزيره أن يأتيه بينت على عادته.

* يدخل الوزير إلى بيته كئيبا مهموما لأنه لن يستطيع إرضاء الملك. تستفسره شهرزاد عن سبب قلقه وتوتره. يخبرها وتشده الآيات الآتية

قل لمن يحمل هما إن هما لا يـدوم

مثلما يفنى السرور هكذا تنفني الهموم

تركب التحدي المخوف بالمخاطر والاهوال وتطلب من أيها تزويجها بالملك الجبار، الذائع الصيت، الذي ينتقم كل ليلة لذكورته وسلطته القضائية المغتصبة. وتقرر باختيار أن تكون في مواجهة يومية لا مع الموت فحسب، بل مع القمع الجسدي والجنسي والاجتماعي، إما أن تحافظ على استمرار حياتها وحياة بنات جنسها أو أن تكون فداء وتخلصهن من بطش الملك : الوسيلة إبداع قصص من وحي الخيال ذات وظيفة انقاذية، لنفسها ولبنات جنسها. وتنجح بامتياز كراوية ماهرة ذكية تمكنت من التسلل إلى وجدان الملك والاستيلاء عليه، واضعة الحد لبحار الدماء التي كان يسبح فيها، بترويض شهيته المتوحشة وتذليل غضبه السوداوي المرير بالتحليق في أجواء الخيال عبر ”فبركة“ قصص غريبة، تصف العالم من خلال فكرها وفطنتها وقدرتها الفنية، ساعدها في أداء هذه المهمة الشاقة :

- استعدادها الفطري الثقافي كميزة لم تنفرد بها عن نساء عصرها بل انفردت بها فقط عن اللواتي سقن إلى الموت كالقطيع.

- اطلاعها الواسع على كتب التاريخ وسير الملوك، وقدرتها على معرفة حالة شهريار النفسية، لان الحكاية تقتضي أن يكون السامع على مستوى السارد ليشد انتباهه.

- اعتمادها في عرض احداث حكاياتها على السرد وعنصر التشويق والمفاجأة لما له من دور في شد انتباه المستمع إليها.

- تهيئته نفسيا لحفاظا على حياتها، وهو السبب الذي جعلها لا تلجأ إلى حكاية بعينها تخدم قضيتها كامرأة مهددة بالقتل، بل إلى حكايات متنوعة : غرامية، بطولية، خرافية، عن الملوك، والأمراء، والسلاطين، والتجار والجواري، والجن، والحيوانات. حكايات سحرية رومانسية تاريخية لا تخلو من غدر النساء ومكرهن. وهي تكتسب ثقته، كانت تذكره بأخرى ذات أطوار ومواقف ومراحل مختلفة، عن وفائهن وذكائهن مستجيبة لشعاره "احك لي قصة وإلا قتلتك"

- اعتمادها على تأجيل بقية الحكاية في اللحظة المثيرة من لحظاتها إلى اليوم الموالي عن قصد، وعدم قطع الرواية في نهاية الليلة تشويقا له. وبهذه الطريقة تضمن تأجيل قتلها، وتضيف حبة إلى عقد حياتها، لتصبح العنصر الايجابي الفعال والمؤثر بقوة في شخص الملك والمتحكم في علاقتهما. فهي الراوية المملوكة لأدوات الإبداع، القادرة على سحب البساط من شهريار الذي تحول من ملك شرقي مستبد ثائر متسلط لا أحد يستطيع كبح جماحه لكونه يحتل قمة الهرم، وهو موقع يمكنه لا من مصادرة الناس كأموال فحسب، بل كاحاسيس ومشاعر، وحياة المرأة التي لم ترتكب الخيانة الزوجية فحسب بل الخيانة الطبقيّة، إلى متلقي هادئ رزين يستأنس بالعالم

الخيالي المثخن بمواضع الخيال الجنسي الذي يتحكم بآلياته التاجر كرمز للطبقة المسيطرة. وتتمكن شهرزاد المرأة لا بقوة الدهاء والمكر والاغراء الجنسي، والتحالف مع الشيطان لتوقع الملك في حبالها كما في قصة السفوط، ولا باستغلال قوة العفريت، بل برصيدها الفكري ووعيتها الاجتماعي وجذور الرفض المتأصلة فيها، واصرارها طيلة الالف ليلة وليلة على أن تتحدى التحدي وتنتهي الصراع لصالح بنات جنسها، لتحقيق استمرارهن النوعي الذي كاد ينقطع على يد شهريار، وبتكسير الحواجز والقيود التي فرضتها أسباب اقتصادية سياسية منبهة النساء إلى إدراك أهمية دورهن كشريحة فاعلة مؤثرة ومسؤولة في المجتمع ودعامة أساسية من دعائمه. وهي دعوة لا تخلو من مغزى سياسي واجتماعي عميق وصرخة ضد تحمل أنواع الظلم والقيود الطبقي والجنسي، حتى إذا أنهت ورايتها الواحدة بعد الالف مما يستوجب معها تنفيذ القتل في حقها، تكون قد أنجبت ثلاثة ذكور خلال الثلاثة سنوات التي استغرقتها الليالي. موازاة مع إنجابها الفكري كان هناك إنجاب رحمي، وبالتالي تكون نجاتها ناتجة عن القدرة على التكاثر قصصيا وذرية، خصوبة الفكر وخصوبة الرحم. وهي خاصية يلتقي فيها الجنسين. فكبار الشعراء يوصفون بالفحول. ولا يمكن الحزم بأولوية أحدهما على الآخر في الدور الذي يقوم به في تخليد النوع الذي لا يتم إلا عن طريق تعاون أعضاء الذكر والانثى، وتكون بذلك قد أثبتت تفوقها الاجتماعي عمليا، بعد أن استطاعت من خلال رواياتها أن تعيش في عالم لم تحقق فيه التوازن النفسي بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. وتبقى طموحاتها ورغباتها كامرأة لا تفصل عن طموحات ورغبات بقية النساء.

لقد حملت شهرزاد ألف ليلة وليلة الكثير من احلامها وحركياتها وشهواتها المكبوتة وغير المكبوتة، التي تشكل في مجموعها تمردا على السلطة والنظام والقانون، بغية التخلص منها، وركبت المخاطر لتتحرر. ولم

يكن ذلك ممكنا لولا جذور الرفض التي تستقر في أعماقها. فالحكاية كجنس أدبي فرصة للحلم، وفيها يصبح المستحيل ممكنا وبواسطتها استطاعت أن تطلق صرخة احتجاج على :

- الاعراف والتقاليد والرقابة الاجتماعية، وتكسر قيود الزمان والمكان - نظام الحكم ذي الابعاد الضيقة الذي يمثل الملك أعلى قمته، يليه الأثرياء والتجار ورجال الاحياء والشرطة - النساء والعبيد والاماء وعامة الناس، وهي قاعدة الهرم التي تمثل التخريب والقوضى.

كما تتضمن الليالي ثورة تعلن المرأة من خلالها حقها في السلطة والملك ... هذا الحق الذي لا يمكن أن تمارسه إلا عبر الرجل أو في غيابه، امرأة ناهية متسلطة على من هم دونها ... هكذا تصرفت زوجة شاه زمان في غيابه واستدعت عبدا لتمارس معه في فراش الزوجية، رغبة في ممارسة الذات وتمردا على العلاقات الجنسية غير المتكافئة التي يباركها المجتمع. فالملكة لا تملك حرية التصرف إلا في غياب الملك.

إذا كانت الليالي جنة ساحرة مليئة بالخيال والمتعة، فإنها مليئة كذلك بالعذاب والقهر، وبرز ملامح الشرق الاسطوري الرومنسي المتخيل كدنيا للإغراء والرغبة، انه ارض النساء الكثيرات الجميلات، وارض الغيرة، حيث يجد فيه المكبوت فسحة للراحة والمتعة، بين أجساد رشيقة، تمتع بكامل الفنج والطراوة والليونة والدلال، لتمارس تحريكاتها المتوجة التي خلقت من أجلها !! فإن الجانب المضرر من الحكايات غاص بكل ما في الحياة من طاقات متفجرة، كشفت عن حقيقة المرأة "الثائرة" الساعية إلى تحقيق وجودها، والمتمردة على النظام الاقطاعي المتصلب. لقد اعلنت شهرزاد خلال الليالي العربية، رفضها للحجب السميكة التي تحاصرها، واطلقت صرخة احتجاج من أجل عالم خال من الاستغلال والظلم والقهر، باحنة عن حقها في الشراكة المتكافئة مع الرجل في الميادين التي احتكرها لنفسه،

وللعيش في عالم خال من ضغوط وقيود السلطة والرقابة الاجتماعية والتقاليد والعادات، عالم فيه تتحقق العدالة والكرامة والحرية والتوازن النفسي، لتحقيق رغبات الانسان عامة، لتصبح بذلك رمزا يتعدى المرأة الشرقية بخمارها، ويحطم المنقولة التي ترى مركز الاهمية فيها خارج الدماغ، لتصل إلى العقل والحكمة والمعرفة التي طمسها المجتمع وحجبتها أسوار الحريم.

وإذا كانت شهرزاد قد سكنت عن الكلام المباح فإن الحديث عن المرأة كقضية اجتماعية سيستمر إلى الأبد متجاوزا حدود الزمان والمكان. باحثه عن حقها في الشراكة المتكافئة مع الرجل.

جنسوية اللغة

اللغة هي حقيقة الفكر المباشرة

كارل ماركس

اللغة وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس، وعامل أساسي لنشأة المعرفة الانسانية، وتطويرها أو جمودها، والكلمات - أصغر وحداتها - ليست أشياء غامضة خفية، بل هي أحداث في الزمان وفي المكان. اللغة ذاكرة الناس وحاملة الفكر والثقافة بالمعنى الانثربولوجي، وجزء لا يتجزأ من عملية التفكير.

وتتميز الثقافة العربية من بين سائر الثقافات الانسانية بالتواصل الحي والترابط الوثيق بين ما هو موروث مدون، وما هو مأثور يعيش في ذاكرة الناس، يتناقلونه عبر الاجيال، في تواصل واستمرار، دون انفصام، داخل المنظومة اللغوية للتعبير عن المقولات الفكرية للمجتمع في إطار وحدة مترابطة من العادات والتقاليد، تعكس ممارسة الانسان العربي لواقعه اليومي المعيش. يقول رينست كاسبرز «قد تتغير العادات والافكار الدينية بمرور الزمن، أما كلمات هذه التراثيل وإيقاعها فإنها تبقى بغير تغير على الدوام، وعادة ما تنشأ دون فهم لها، ويذهب (هـ. ج ولز) إلى أن " اللغة هي المحور الرئيسي لحركة التاريخ الانساني بأسره " وبالتالي فلا مناص من إخضاعها للبحث العلمي والتعامل معها كبضاعة، ونزع قدسيته الزائفة لانها تخدم البيئة الطبقيّة التي عادة ما تحمي مصالحها باللجوء إلى الغيبيات. يؤكد مالبينوفسكي «أن اللغة - أية لغة - لا تلعب فقط دور الحارس والحامي

للاسطورة والاديان بعامة، بل إن اللغة هي في حد ذاتها لعبة الحكم والحفاظ الأمين على الأوضاع الطبقيّة والاجتماعية». ولغتنا العربية وعاء للفكر الاسطوري الحامل لجذور التمييز الجنسي المستمر بين الذكورة والانوثة، والمخفور في التخيل الشعبي، والحافظ لاصوله.

فكلمة : التحريم، والحرمة والحريم والحرام - والحرامي ومشتقاتها، والقداسة والقدسية متجذرة في ثقافتنا. يضيف مالبينوفسكي «إن معنى الكلمات يهدف إلى وظيفتها أو منفعتها أو استخداماتها. فآفة العقل الغيبي والاسطوري تكمن في اللغة التي تبقى مكبلة بالأساطير وابنتها اللغوية». والاساطير اتخذت من المرأة رمزا للحياة والارض والخصب، وطوقتها بسلاسل من الافكار المسبقة والمحرمات التي تشل شخصيتها وتضعف فاعليتها. والدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة في شكل الحضارة وصياغة الشخصية العربية جد عميق، باعتبارها الوعاء الرئيسي للمحافظة على الشخصية الثقافية، والعنصر الفعال في تطويرها. فالعلاقة بينهما قوية متلازمة، لا يمكن فصلها أو زعزعتها دون المس باحد الاطراف. ولتطوير الثقافة لابد من لغة حية متطورة قريبة من فهم الانسان، قادرة على التعبير عن مشاعره الجديدة، واحتواء آماله وطموحاته "لست أتصور لامة من الامم ثورة فكرية كاسحة للرواسب، الا أن تكون بدايتها نظرة عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها لأن اللغة هي، الفكر، ومحال أن يتغير هذا بغير تلك ا»

فالمرأة أمطوريا موضوع تحريم، وأصل الخطيئة ويمكنها أن تكون أي شيء ما عدا أن تكون إنسانا تاريخيا لها وضع اجتماعي وسياسي وثقافي .

وتطوير اللغة - كبنية ثقافية - لا ينفصل عن سياسته تطوير المجتمع ككل، وتغيير العلاقات بين أفرادها، ولا يمكن طرح قضية تطوير الفكر بمعزل عن التنمية وتطوير المجتمع لأن ربط النضال من أجل تطوير الثقافة، بالنضال من أجل التنمية والتقدم، يعطي للبعد الثقافي الانساني قوة في الحركة التاريخية. فالتنمية لا قيمة لها اذا لم تتمحور حول أفكار جوهرية قوية كالحرية والكرامة والعدل والرفاهية والديموقراطية واحترام حقوق الفرد والجماعة كيفما كان نوعها ومصدرها. وبدون هذا تكون التنمية عملية مادية آلية جوفاء لا وزن لها، مجردة عن محيطها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

كيف تعامل اللغة مع المرأة ؟

تقرر البنية القواعدية التراتب الجنسي، ويظهر ذلك في التطابق التام مع المذكر إذا وجد جنسا الذكر والانثى. في شرح ابن عقيل «أصل الاسم أن يكون مذكرا والتأنيث فرع من التذكير - وهذا يذكرنا بحواء المشتقة من أحد اضلاع آدم، ولكون التذكير هو الاصل، استغنى الاسم المذكر عن علامات تدل على التذكير. ولكون التأنيث فرعا من التذكير افتقر إلى علامة تدل عليه وهي التاء والالف المقصورة¹.

ويلعب الجنس دورا قواعديا مماثلا للدور الذي يلعبه صاحبه في الحياة الفعلية، لذا تميل قواعد اللغة العربية إلى إبراز الذكورة مساهمة منها في أحكام الحصار التاريخي بالعلاقات غير الطبيعية وغير الانسانية وغير الحضارية بين الرجل وبين المرأة. يستخلص أبو حيان التوحيدي من الاسم المعرف وغير المعرف أو لوية الذكور.

1- شرح ابن عقيل ج 2 ص 304 القاهرة 1931

«جرى حديث الذكور والإناث فقال الوزير : قد شرف الله الإناث بتقديم ذكرهن في قوله تعالى : يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. فقلت : في هذا انظر. قال : قدم الإناث كما قلت فنكّر، وآخر الذكور لكنه عرّف. وعلق مضيفا : التعريف بالتأخير أشرف في النكرة بالتقديم. ثم قال أو يزوجهم ذكرانا وإناثا. فجمع الجنسین بالتذكير مع تقديم الذكران" ١.

فالجنس في قواعد اللغة العربية كما في واقع العالم العربي الاسلامي - غير المرتاح جنسيا - يتضمن تراتبا يوازي التراتب الجنسي وبالتالي تنقل اللغة للانسان منظومة جاهزة من القيم فتوحى ببعض التصنيفات التي - ربما لم يكن الانسان لينشئها لو أنه لم يكن يعرف هذه المنظومة !!!

ولم تنج البنية الصرفية بدورها من ممارسة نوع من الطائفية العنصرية ضد الانثى : فناء التأنيث تميز بين المذكر والمؤنث ويلغي رجل واحد كيفما كان وضعه ومستواه مجتمعا من النساء كيفما كان وضعهن ومستواهن !!!

فاللغة تعكس مستوى وعي الجماعة التي ابتدعتها وسلطتها لأنها لا تتطور بمعزل عن الناطقين بها، والوعي الانساني لا يتطور بمعزل عنها ولغتنا تكشف عن ظاهرة الانقسام الطبقي للمجتمع الابوي المستنبط من الفكر الاسطوري المبني على ثوابت دونية المرأة وهامشيتها واستيلاها ولا تاريخيتها، ولا تسعفها في الحديث عن التحرر، ولسان العرب الذي نزل به القرآن بدوره يغلب صيغة المذكر على المؤنث . *

١ - أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص 101

جاءت هولر لساية اجتماعية انجليزية بجامعة فيكوريا (نيوزيلندا) مقتطف في مداخلتها في المؤتمر ١١
اللسانيات الاجتماعي

وتعزو الباحثة اللسانية "جانيت هولمز" التباين بين الجنسين في طريقة الكلام إلى التباينات الاجتماعية. وتعمكس "عمليات التفاعل" أو عمليات التنشئة الاجتماعية لدى الذكور والإناث مما يستدعي الوعي بالتأثيرات اللسانية لهاته الأنواع من الصيرورات. كما أن هذه الفروقات اللغوية بين الذكور والإناث تعمكس بنيات السلطة داخل المجتمع، ويتعين إدراك مدى السلطة التي تمارسها الجماعة المسيطرة من خلال طرق لسانية، وحرمان الجماعة التابعة الخاضعة من الوصول إلى هاته السلطة وبات لدى النساء من حيث كونهن جماعة ميل لتبعية الرجل، ونتيجة لذلك كان حظهن من الوصول إلى بعض الأنواع من الخطابات ضئيلا. فهن لا يساهمن بالقدر الذي يساهم به الرجل في بعض المقامات الاجتماعية، كما يحاول الرجال حرمانهن من حصصهن المشروعة في الكلام. ولم يمنحن في الكثير من المقامات الفرصة للتعبير عن أفكارهن، وللنجاح في اجتذاب الأنظار إليهن.

قد يبدو هذا على المستوى الميكروثقافي مجرد سكوت من جانب النساء لكن على المستوى الماكروثقافي وهذا سبب اهتمام علماء اللسانيات من الإناث باكتشاف هذا المجال. فإذا كنت تمثل الجماعة المسيطر عليها، وتحس بالتمييز والقمع والقيد من قبل الظروف الخطائية فمن المحتمل جدا أن يكون لديك اهتمام في اكتشاف إن سلطة الخطاب النسائي أضعف من الخطاب الرجالي وأنواع تقنيات وعمليات الخطاب التي تثبت وضعيتك المقموعة والمقيدة. ومن ثم فمحتمل أن يكون للنساء دافع قوى لدراسة هذه الأنواع من الصيرورات والأنماط والبنيات.

عميدة المناضلات

ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط
فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه الكثير

رواه الترمذي بسند صحيح

تميزت عائشة من بين سائر زوجات الرسول (ص) بالخوض في غمار الحياة العامة للمسلمين بجميع مستوياتها. وكان لها حضور علمي، ونفوذ سياسي قوي، ومكانة بارزة في الدولة الإسلامية، التي لم تعد مشاركة المرأة منذ ظهورها منذ سنواتها الأولى، انطلاقاً من التنظيم السري ذي التكتيك البسيط الذي سيتوسع لتصل قاعدته في غضون الثلاث سنوات الأولى إلى ستين رجلاً وعشر نساء، شكلوا النواة الرئيسية المنظمة اجتماعياً في دار الأرقم بن الأرقم. من هذه النواة استطاع محمد (ص) أن يجهر بالدعوة في أهل مكة الذين شاقوه وماروه ليتنقل بعد وفاة السند المدعم (الزوجة والعم) إلى الطائف التي لم يجد بها غير عذاب الإيذاء ومرارة الحية، من أهل ثقيف لأنه كانت لهم مصالح اقتصادية مع قريش، لبدأ مرحلة ثانية بعد الهجرة الأولى لبعض المسلمين والمسلمات إلى الحبشة، في السنة الخامسة من نزول الوحي، يعرض نفسه على الوفود القادمة إلى مكة في موسم الحج من مختلف الجهات لأداء مناسكه، كنيي حامل لرسالة سماوية جديدة، زاده الإقناع، والتنديد بتكديس الثروات في أيدي الأقلية من تجار قريش. وجد استجابة من وفود أهل يثرب الذين بايعوه على أن يفدوه كما يفدون أهلهم وأبناءهم بعد أن قبلوا الدعوة، ومهدوا له طريق

الهجرة ليصبح القائد العسكري والسياسي للمهاجرين والأنصار في المدينة، ويجمع بين يديه السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وكانت هذه المرحلة إيذاناً بتحول جديد في تاريخ الإسلام بعد تمكنه من إحلال الرابطة الدينية محل الرابطة القبلية العشائرية " إن هذه أمتكم أمة واحدة "2 وأنا ربكم فاعبدون (فاتقون)

تواجهت المرأة في هذا المسلسل التنظيمي السياسي المحكم الذي مكن من إرساء قواعد المجتمع الإسلامي . فقد شهد بيعة العقبة الثانية ثلاث وسبعون رجلاً وامرأتين* ويعتتها بيعة الحرب³ . والبيعة أمر سياسي يبايع فيه المواطن والمواطنة من يتولى تدبير أمورهم . قبل ذلك كان لها حضور في الزحف السري السلمي الذي انتزع من قريش في صلح الحديبية أول اعتراف رسمي واقعي بحق المسلمين في الدخول إلى مكة، وبحريتهم في إقامة التحالف مع من يشاؤون من القبائل، من طرف الخصوم الرئيسيين المعاندين، ومفاوضات الحديبية من أعقد مفاوضات التاريخ صعوبة، إذ مكن التوقيع على بنودها العشر - رغم قساوتها - بعد صراع حاد ومعاناة شاقة من اثباب شخصية المسلمين السياسية المستقلة . فالإسلام ظهر كثورة حضارية شاملة قاعدتها الفقراء والمستضعفون والارقاء والموالي والمقهورون بسبب الثراء الاخطبوطي الفاحش المركز في أيدي الأقلية التي حازت عليه بمارستها التجارة الربوية (ربا الفضل وربا النسيئة) والرهون العقارية، وحيازة الأرض عبر بساتين الطائف، مما جعل التباين الاجتماعي يبرز في أبشع صوره، تحتل فيه قريش أعلى قمة الهرم، وساهم في التقدم البشري لأنه كان سلاحاً إيديولوجياً ساعدهم على استعادة بعض من إنسانيتهم

2 - سورة الأنبياء الآية 92

سورة المومنون الآية 52

* - نسيئة بنت بكر وأسماء بنت عمرو بن عدي

3 - ابن هشام السيرة النبوية ج 1 ص 427

المهدورة، والتخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم. نحن إذن أمام إيديولوجيا، والإيديولوجيا تنطوي على مصالح طبقية ومطامح سياسية، وأعلن القضاء على جميع أنماط العبودية والقهر والاستغلال وإحلال العدل في السلوك الاجتماعي، ولم تكن المرأة غائبة عن الصراع الدنيوي للدعوة الإسلامية الذي خاضه الملأ المكى لكون رسالة محمد تهدد كيانه السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ومحاولة ترضيته بالمال والزعامة، مقابل تخليته عن الدعوة والحصار الاقتصادي (مقاطعة التعامل مع بني هاشم)، والتحالف مع الارستقراطية اليهودية في المدينة، وتهديد الرسول (ص) للطرق التجارية (غزوة بدر).

جل المرويات التي تحط من قيمة المرأة وجد أصحابها تفسيراً لها في معركة الجمل التي هزم فيها الجيش الذي كانت تقوده عائشة. فذات الجمل "الأحمر" الفقيه الأولى في الإسلام تركت أكبر الآثار في الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين قال عنها هشام بن عروة عن أبيه: "مارأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة".

فقد عرفت بالقوة والشجاعة والجرأة نسبة إلى الحقبة الزمنية التي تراجدت فيها، وكانت تتابع بعمق التحولات التي طرأت على المجتمع الإسلامي في مسيرته التاريخية. أفرعتها الطريقة التي قتل بها الخليفة عثمان بن عفان، والتي تمس كرامة الدولة في شخصه، فقتله بتلك الطريقة الوحشية يعد بحق أبشع جريمة ارتكبت في تاريخ الإسلام. قبل ذلك كان لها موقف واضح جريئ من الأخطاء الجسيمة التي كان يرتكبها أقرباؤه من بني أمية الذين قبضوا على مقاليد السلطة وتوزعوها فيما بينهم، ولم يوفقوا في الارتفاع إلى مستوى مسؤولياتهم كحاشية مسؤولة للخليفة على مختلف الأمصار، واقبلوا على الدنيا يتهافتون لجمع الثروات، ويستأثرون

بالقيء و بعيش الترف والبذخ، وكان يؤلمها مثل ما يؤلم عليا ويفزعها مثل ما يفزعها ضعف الخليفة وتسامحه معهم وهو يعرف أنهم أصحاب مصالح ويشكلون قوة الضغط . وحين وقع الصراع بين الإثنين تحامل الجميع على أم المؤمنين وحملوها وحدها الخطأ، بل حكموا عليها بالكفر لولا ثوبتها حسب إقرارهم !!

بدأ الخلاف بين علي وعائشة بمقتل عثمان ومبايعة علي للخلافة من قبل الأنصار والمهاجرين، لينتهي بأحداث اليمّة دامية سجلها التاريخ، وكانت موضوع تأويلات متعددة لاستجلاء الجوانب الغامضة.

قتل عثمان في موسم الحج . ومن أزواج النبي في مكة حفصة بنت عمر وأم سلمة وعائشة التي أخبرت وهي في الطريق إلى المدينة بالفاجعة فقالت : قتله ذنبه، وأقاده الله بعمله، وما الله بظلام للعبيد . يامعشر قريش لايسو منكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه، إن أحق الناس بهذا الأمر ذر الأصبع كما كانت تسميه⁵.

يؤكد الكثير من المفسرين أن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله (ص) ، فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين عليها : هذا ثوب رسول الله لم يبل وعثمان قد أبلى سته . وكانت أول من سماه نعثلا، ومن أقوالها : اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا.

قال أبو محنف لوط بن يحيى الأزدي : " لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة أقبلت مسرعة وهي تقول : ايه ذا الاصبع، لله أبوك، أما أنهم وجدوا طلحة كفتالها. فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبد الله بن سلمة الليثي فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان. قالت : ثم ماذا ؟ قال : حارت بهم

5- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج 2 ص 77

الأمر إلى خير محار، بايعوا عليا . وهنا ثارت ثائرتها، وقررت شق عصا الطاعة على علي قائلا : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض ان تم هذا، وبحك انظر ماذا تقول. قال هو ماقلت لك يأثم المؤمنین فولولت فقال لها : ما شأنك يأثم المؤمنین، والله ما أعلم بین لابیها أحدا أولى منه ولا أحق، ولا أرى له نظیرا فی جمیع حالاته، فلماذا تكرهین ولايته ؟" فماردت علیه جوابا.

یظهر أن ابتهاجها بولاية طلحة أول الأمر یفسره كونه یمیا مثلها، وأمرت برد ركبائها إلى مكة، وعمدت إلى الحجر فاتخذت فيه سترًا، وجعل الناس یجتمعون إليها فتحدثهم منكرة قتل عثمان، ومبررة معارضتها بحديث كان له تأثير علیهم لدرجة أنهم رفضوا تولية خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة الذي بعثه علي والیا علی مكة، والقوا صحيفة علي التي وصلتهم فی هذا الشأن إلى سقایة زمزم بعد أن اقتنعوا بحديثها، فما سر هذا الانقلاب، وقد كانت الحمیراء علی رأس الناقمین علی عثمان والمحرضین علیه والمستكرین لسیاسته ؟

بعض المهتمین یفسر رد فعلها تجاه علي علی أنه بلسم لجرحها الدفین منذ حادثة الأفك* ، حیث كان علي من المشیرین علی الرسول (ص) بطلاقها تنزیها لعرضه عن أقوال المنافقین لما استشاره قائلا : أن هی الا شسع نعلك، سل الخادم وخوفها، وإن قامت علی الحجود فاضربها" .

وبلغ عائشة ذلك ، وبلغتها شماتة فاطمة الزهراء، وذلك قبل تبرئتها قرآنیًا. بعض كتب التفسیر ناقشت ضمناً كون امرأه نوح كافرة زانية كما هو حال مجتمعها الذي عاشت فيه، وأن ابنه سام ابن زنی، أو ولد علی الفرائش، لكن الخطاب الإسلامی اللاحق یستنكر بل ینفی أن تكون زوج

* الحادثة التي اتهمت فیها أم المومنین بالزنی مع الصحابی صفوان بن المعطل السلمي

النبي نوح خائنة وزانية إذ يحصر الخيانة بالكفر كما أكد ذلك الطبري في جامع البيان في تأويل أي القرآن، إذ يربط الخيانة بالشرك والكفر، كذلك القرطبي. ويشرح ابن كثير ذلك يقول: قال ابن عباس وغيره: مازنت امرأة نبي قط وإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب على الذين رموا عائشة بنت الصديق، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا أشاعوه. أما عن ابن نوح فيقول ابن كثير: إنه ليس ابنه وإنما كان ابن امرأته⁶. والآية 10 من سورة التحريم تربط بين خيانة امرأة نوح وخيانة امرأة لوط يفسرها الطبري كما يلي: كانت خيانتها أنهما كانتا مشركتين⁷.

وترى طائفة أخرى أن عليا امتنع عن مبايعة أبي بكر الصديق الذي اعتبر امتناعه بمثابة شن حرب عليه، وأنه اقتحم بيته بالقوة. يؤكد ذلك ما قاله أبو بكر وهو على فراش الموت أنه ندم على ثلاثة أشياء فعلها وعلى ثلاثة أخرى تركها «فليتني تركت بيت علي وإن كان قد أعلن علي الحرب»⁸ وفي رواية أخرى «وددت أنني لم أكشف بيت فاطمة من شيء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب»⁹ معنى أن أبا كرا اقتحم بيت علي وفاطمة بالقوة بعد ما امتنع عن مبايعته.

ويرى البعض الآخر أن السبب هو زواج علي من أسماء الخثعمية أم محمد بن أبي بكر الذي تربى في حجره بعد وفاة أبي بكر الصديق، بينما يذهب الفريق الثالث إلى أنها كانت تضيق به لكونه زوج فاطمة بنت خديجة، الودود الولود التي تعلق بها قلب الحبيب في حياتها وبعد موتها، وعائشة لم تتمكن من الإنجاب، والإنجاب عند العرب لا يكون إلا بالذكور،

6- تفسر القرآن ج 2 ص 444

7- ابن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل أي القرآن ج 28 ص 170 - 171

8- ابن قتيبة الأمانة والسياسة ج 1 ص 18

9- ابن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك ج 2 ص 353

فكيف بها وهي لم تنجب ذكورا ولا إناثا، ولم تكن من " منجبات العرب ". وعلي هو أبو الذرية الباقية من محمد (ص) أضف إلى ذلك أنه كان يميل إلى مارية القبطية ويقوم بأمورها عند النبي، وفرح هو وفاطمة لما ولدت ابراهيم، ويرآها من حادثة شبيهة بالحادثة التي وقعت لعائشة أو برآها الله منها على يده .

روى محمد بن الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين قال : كان قد كثر على مارية القبطية أم ابراهيم في ابن عم لها قبطي كان يزورها ويختلف إليها فقال لي النبي : خذ هذا السيف وانطلق، فإن وجدته عندها فاقتله، قلت يا رسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة الخمأة، أمضي لما أمرتني به، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فاقبلت متوشحا بالسيف، فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما أقبلت نحوه، عرف أنني أريده فأثنى نخله فرقي إليها، ثم رمى بنفسه على قفاه، وشغل برجليه، فإذا به أجبّ امسح، ماله مما للرجال قليل ولا كثير، قال فغمدت السيف ورجعت إلى النبي فقال : الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت.

ونسب إليها أنها أمرت بلالا أن يأمرأباها بالصلاة، فجعل يوم صلاته بهم حجة صرف الأمر إليه. " أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمها رسول الله في الصلاة"، فبويح على النكثة كما كان يردد ذلك علي لأصحابه : ألم يقل (ص) " أنكن لصويحبات " يوسف إلا انكارا لهذه الحال، وغضبا منها لأنها هي وحفصة تبادرتا لتعيين أبييهما، وأنه (ص) استدركهما بخروجه وصرفه عن المحراب، وسد الرسول (ص)، باب أبيها إلى المسجد وفتح باب صهره علي، ثم أن عائشة لما تولى أبوها الخلافة استطالت واستظهرت على علي وفاطمة. وما كان من أمر فذك الذي طلبته على سبيل الإرث أو النحلة واحتجت بالطلب والحث وتظلمت فلم يمكنها منه أبو بكر معللا ذلك بقوله أنه سمع رسول الله يقول : نحن معاصر الأنبياء لانورث ما تركناه، فهو صدقة" وما كان من امتناع علي من

مبايعة أبي بكر، ولم يفعل ذلك إلا بعد موت فاطمة أي بعد ستة أشهر من خلافته... مبررات قد نجد لها عذرا عند عامة النساء لما قد تتركه الغيرة أو الحرمان من الذرية (العقم) من رواسب في النفس، لكنها مستبعدة بل مردودة في حق " ذات الجمل الأحمر " لأسباب كثيرة : فمن كان يمثل علمها وأخلاقها وقوة شخصيتها وجرأتها وذكائها ووعيتها ووزنها الاجتماعي، وعند زوجها لا يمكن أن يتغلب عليه الإحساس بالألم من أمور خارجة عن إرادته . فقد أنزلت ابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير منزلة الابن وكانت تكنى به، وضمت القاسم بن أخيها عبد الرحمان وأخته بعد موته. يقول عنها القاسم " فمارأيت والدة قط أبرّ منها " أو ينال منه الحقد والغيرة وشهوة الانتقام والثأر، خصوصا وأنها تعرف قيمة علي ومكانته في الإسلام، وعند زوجها، فهو ابن عمه، وتلميذه الذي تربى في حجره، وأفسحت له سيدة نساء زمانها من قلبها مكانا كبيرا، ورعته بعين الحب والرحمة. وجعلت زوجها قرير العين بما قدمه لعمه أبي طالب الكثير العيال والقليل المال، وتعلم أنه هو وزيد بن حارثة أهم الأركان المساندة له، من إعداد وتهيئ أحب الناس إليه الغنية الثرية العاقلة المتزنة خديجة، الواعية بأهمية التجارة ومنافعها ، والملمة بإدارة شؤونها وقواعدها بين رجالات قريش، والمتواجدة إلى جانبه في أوقات الشدة والمحنة والحصار. وتعلم علم اليقين أنها عاشت معه الفترات العصيبة التي عانى منها المسلمون في صدر الإسلام وهم يتعرضون للبلاء بصبر.. ويزداد الإغراء فيزداد الرفض والإمساك « والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر متركته، فترات كانت إلى جانبه زوجة مطمئنة صابرة محتسبة مساندة ماديا ومعنويا. وهل يخفى على عائشة أن زواجها لم يكن إلا بعد التحاق الصدر الحنون والقلب الرؤوف، الخفف للهموم والمتاعب وعنت المشركين وحجودهم إلى الرفيق الأعلى، وما كانت تتمتع به المجاهدة الأولى من مركز اجتماعي وكفاءة وشرف وأرومة وأشياء أخرى ..؟ جعلتها تقبل اليتيم الفقير الشاب زوجها لها، وجعله هو يتقبل سيدة أسن منه بكثير، متزوجة مرتين ولها أطفال !!! ويبقى وفيا لحبها، إذ لم تشاركها فيه غيرها حتى ماتت. قالت عنها إقرار لحفظ رسول الله عهدها بعد مرتها " ماغرت

على أحد من نساء النبي ماغرت على خديجة قط، ومارأيتها قط ولكن كان
يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق
خديجة وربما قلت له : كان لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول :
أنها كانت وكان لي منها ولد¹⁰.

وقال جميع بن عمر التيمي : دخلت مع عمتي على عائشة فسئلت
أي الناس كان أحب إلى رسول الله ؟ قالت فاطمة قيل ومن الرجال ؟
قالت : زوجها إذ كان كما علمت صواما قواما ". أيضا لم تكن تجهل
منزلة علي عند الرسول، فهو صاحب لوائه في مشاهدته كلها، أخوه في
الهجرة، أب حفيديه، وتقدر علمه وشجاعته وفقهه وفصاحه لسانه، وشدته
في الحق وإذعانه له، وغلظته على منكره، " إن عليا أقضانا " شهادة من
الفاروق في حقه " لو ولوها الاجلح لحملهم على الجادة " ¹¹.

حقائق ومميزات ثابتة ماكان لعائشة أن تجهلها أو تتجاهلها أو أن تؤثر
في نفسها لدرجة الانتقام والاخلال بالأمن العام للأمة، إضافة إلى مكانتها
العلمية والفقهية وحنكته في التصرف.

جاء في الموطأ إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبو
بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : " ان انظر ماكان من حديث رسول الله
أو سننه فاكتبه فإني خفت دوس العلم وذهاب العلماء وأوصاه أن يكتب ما
عند عمرة* بنت عبد الرحمان الأنصاري وماعند القاسم بن محمد بن أبي
بكر وهو ابن أخ عائشة.

ولا شك أن الفقيهة كانت تعي أن زواجها من الرسول كان تكتيكا

10 - رواه الشيخان والترمذي

11 - أخرجه الترمذي والحاكم وصححه.

* - عمرة خالة عمر بن عبد العزيز وكانت تروي أحاديث سبقتها عائشة

لتحقيق استيراتيجية رسمها (ص) بعد موت العم والزوجة خصوصا وأنها كانت قبله مخطوبة لابن جبير بن مطعم بن عدي صديق عزيز لأبي بكر. وكان أعلم قريش بالعرب بعده لأنه المتولي لتأديبه وتثقيفه. وكان أبو بكر قد سمى عائشة للذي رأى من حسن أثره عليه . وألغى خطوبتها منه لزوجها للرسول وهي بنت ست سنوات، ولم يدخل بها إلا حينما بلغت التسع.

هذه الزيجة وثقت أواصر المحبة والصداقة بينه وبين حامل الديات¹² للكفاح والجهاد الحافل بالبطولات ضد مشركي مكة فأبو بكر كان ضمن المجموعة المتميزة التي تمثل السلطة العليا في النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام في مكة والتي تتكون منها قبيلة قريش*.

فعبد الكعبة أو عبد الله بن عثمان الذي اشتهر باسم أبي بكر الصديق في الإسلام كان يتولى منصب "الاشناق" وهي مسؤولية كبرى ذات أهمية

12 - السلطة العليا التي كانت على قمة النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام والتي اعترف العرب بسيادتها عشر بطون هي :

هاشم : يمثل العباس بن عب المطلب الذي يتولى توفير الماء اللازم للحجيج وتوزيعه عليهم (السقاية)

أمية : يمثل أبو سفيان بن حرب يتولى مسؤولية القيادة الحربية : حامل العقاب أي راية قريش في القتال

نوفل : يمثل الحارث بن عامر ، يشرف على الرفادة أي الأموال التي تنفقها قريش في الحج عبد الدار : يمثل عثمان بن طلحة يقوم على سدانة الكعبة ودار الندوة

أسد : يمثل يزيد بن زمعة بن الأسود يمثل المشورة

تيم : يمثل عبد الكعبة أو عبد الله بن عثمان وهو أبو بكر الصديق كان يقوم بتقدير الديات والمغارم التي تتعهد قريش بأدائها .

مخزوم : يمثل خالد بن الوليد : كان يقوم على الأموال الخاصة بالحروب وقيادة الحبل والفرسان (القبة والاعنة)

عدي : يمثل عمر بن الخطاب يتولى مسؤولية السفارة

جمع : يمثل (صفوان بن أمية) يشرف على الأيسار والأزلام ويستشيرها قبل الإقدام على أهم الأمور.

سهم : يمثل (الحارث بن قيس) يقوم على الأموال الموقوفة على الأنهة المعبودة.

في المجتمع ، فهو الذي يقوم بتقدير الديات والمغارم أي بمثابة وزير المالية في عصرنا الحالي. واختصاص كل بطن من البطون العشرة المكونة لقبيلة قريش مرتبط بوزنها الاجتماعي. وسخر أبو بكر ماله وجاهه بنفق منهما بغير حساب، يؤمله ماضيه ووضعه الاجتماعي، قالت عنه أم سلمة : " كان خدنا لمحمد وصفا له " وقال عنه (ص) مانفني مال أحد قط مثل مانفني مال أبي بكر "

فهل زعزة الاستقرار السياسي فعلا هو الذي جعل عائشة تتخذ موقفها الصارم من علي بن أبي طالب، وتشق عليه عصا الطاعة مطالبة بالكشف عن الحركة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان ؟ متهمة إياه بالتقصير في معاقبة الثائرين على الخليفة المقتول والقصاص منهم، ثم جعل الأمر شوري بين المسلمين يختارون لخلافتهم من يريدون ؟ وما سر تكتلها مع طلحة والزبير الذين بايعا عليا ثم نكثا فيها بعد ؟ وهل كان للثلاثي نفس الأهداف ؟

كل هذا أصبح جزءاً من التاريخ لأنه أصبح في عداد الماضي، لكن مسألة الماضي بعقلية الحاضر لاستجلاء الحقيقة أمر لا بد منه إن لم يكن مسؤولية المثقفين والمهتمين !

صراع المصالح والتهاافت على السلطة

شهد نظام الحياة الإسلامية في عهد خلافة عثمان بن عفان تحولات اجتماعية كانت بداية لإحداث وتطورات انتهت "بالفتنة". فقد انتشر الكثير من الصحابة الذين كان عمر يحبسهم في المدينة خوفا عليهم من التهاافت على جمع الأموال من مختلف الأمصار بحثا عن مواقع تسهم في إنماء مصالحهم الاقتصادية، وتكرس نفوذهم الاجتماعي في أطراف الامبراطورية، واستأثروا بعوائد الفتح. واتخذ عثمان نهج اقتطاع الأراضي التي كانت في ملك عامة المسلمين، والمساحات المصادرة لحساب بيت المال التي كانت في ملك كسرى وقيصر، والقواد والأمرء الذين حاربوا ضد الفتح " أرض الصوافي" وكان عثمان أول من اقتطع أرض العراق¹³ اقطاعات اجارة لتتحول إلى ملكية فردية خاصة فيما بعد. وقد بلغت نحلة هذه الأملاك العامة في عهد عمر بن الخطاب تسعة ملايين درهم، لتتحول في عهده إلى خمسين مليونا، أي نحو ربع الدخل للدولة في ذلك الحين¹⁴ وبسط الخليفة يده في منح الاقطاعات للولاة والقادة والعمال والأقارب الذين استبدوا بالأمر دونه، وأقبلوا على الدنيا يستكثرون منها ويستبيحون لأنفسهم تكديس الثروات جريا وراء سلطة المال وبريق النفوذ. وأصبح البيت السفيناني نواة للأرستقراطية القديمة التي ستلعب دورا بارزا على مسرح الأحداث.

. فوالي الكوفة سعيد بن العاص يقول عن أرض العراق أنها بستان قريش، فيرد عليه الاشر مالک بن الحارث النخعي " أتجعل مأفأء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك¹⁵

13 - القاضي أبو يوسف : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص 140 .

14 - الماوردي الأحكام السلطانية ص 183 طبعة القاهرة 1298 هـ

15 - المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 346

وكان عمر بن الخطاب قد جعل هذا السواد ملكا وبستانا لعامة المسلمين.

والزبير بن العوام قدرت تركته بعد موته ب 59 مليوناً و 800 ألف درهم، وكان له ألف مملوك يؤدون له الخراج¹⁶. وله بالمدينة أحد عشر داراً، ودور وجنان في البصرة والكوفة والفسطاط والاسكندرية¹⁷ وترك ألف فرس¹⁸ وكان يتاجر ويأخذ عطاءه¹⁹.

وطلحة بن عبيد الله كان له عند خازنه يوم موته مبلغ مليونين ومائتي ألف - وكانت له دار مشهورة بالكوفة وغلته من العراق ألف دينار كل يوم، بناحية الشراة أكثر. وشيد داره بالمدينة بالأجور والحصص والساج²⁰. وفي رواية أخرى قدرت ثروته بمائة كيس من الجلد يشتمل كل كيس منها على ثلاثة قناطير من الذهب²¹، وكان سخياً يكفي ضعفاء قبيلة بني تميم ويقضي ديونهم ويرسل إلى عائشة زوج النبي عشرة آلاف وترك من العين مليوناً وعشرين ألف درهم ومائتي ألف دينار.

وسعد بن أبي وقاص كان ميراثه 250 ألف دينار²²، بنى دار العقيق فرغ سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات²³.

16 - أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية ج 7 ص 261 بيروت دار الكتب العلمية

17 - محمد بن سعد الطبقات الكبرى ج 3 ق 1 ص 261 دار بيروت 1960

18 - أبو الحسين علي الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محيي

الدين عبد الحميد ط 4 ج 3 ص 242 المكتبة التجارية الكبرى القاهرة 1964

19 - الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام ص 498.

20 - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2 ص 243

21 - ابن سعد، الطبقات الكبرى ج 3 ص 158

22 - ابن كثير : البداية والنهاية ج 8 ص 81

23 - المسعودي نفس المرجع ج 2 ص 342

وعبد الرحمان بن عوف كان لايمكلك شيئا عندما هاجر إلى المدينة مثله مثل بقية المهاجرين، ولم يمر عليه وقت طويل وهو يمارس التجارة حتى أصبح من الأغنياء، وكثر ماله حتى قدمت له سبع مائة راحلة من الشام تحمل السلع فارتجت المدينة من صوت بعيره ²⁴ ترك ألفي بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع وكان له من الذهب مامحلت أيدي الرجال حين قطعوه بالفؤوس. ووصلت إحدى نسائه الأربعة بشمانين ألف من ربع الثمن ²⁵.

وزيد بن ثابت خلف حين مات من الذهب والفضة مايكسر بالفؤوس، غير الضياع المقدرة بقيمة مائة ألف دينار ²⁶.

ويعلی بن منية خلف 1500 دينار وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار، وقدم إلى المدينة في اليمن في أربعة مائة بعير محملة بالسلع. ومن الذين مولوا حرب طلحة والزبير ضد علي ²⁷.

أما عثمان بن عفان فقد وجدوا له يوم قتل عند خازنه 30 مليوناً و 500 ألف درهم و 150 ألف دينار وألف بعير بالربدة، وصدقات بقيمة مائة ألف دينار، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين 100 ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلًا ²⁸ وبني سبع دور بالمدينة ²⁹.

24- ابن كثير البداية والنهاية ج 8 ص 171

25- ابن كثير البداية والنهاية ج 7 ص 171

26- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 342

27- ابن قتيبة الأمانة والسياسة ج 1 ص 60

28- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 342

29- ابن قتيبة، الأمانة والسياسة ج 1 ص 32

وظهر الصراع حول كيفية توزيع الأراضي المفتوحة، وتحامل الناس على الخليفة الذي حمى الحمى على المسلمين مع أن الرسول (ص) جعلهم شركاء في ثلاثة :

" الماء والكلا والنار" وكان ص يقول : " من كانت له أرض فليزرعها بنفسه أو يمنحها أخاه ولا يؤجره إياها ولا يكرها". وعلق أبو سعيد الخدري على حديث الرسول قائلا : ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا لاحق لأحد منا³⁰ في فضل .

يقدم جمال الدين الأفغاني وصفا دقيقا لهذه التحولات الاجتماعية : «في زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحياة الروحية في الأمة تغيرا محسوسا. وأشد ما كان منها ظهورا في سيرة العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة وأرباب الثروة بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى "أمراء" وطبقة تدعى "أشراف" وأخرى أهل "ثروة وثراء وبذخ" وانفصل عن تلك الطبقات طبقة العمال وأبناء المجاهدين ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس الحكم الإسلامي وفتوحاته ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طراز الحياة والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمتنمين إلى العمال ورجال الدولة، وقد فشت العزة والاثرة والاستطالة، وتوفرت هيآت الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم، وفي العمال، وبمن استعملوه وولوه من الأعمال، فنتج عن مجموع تلك المظاهر التي أحدثتها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين، تكون طبقة أخذت تحس بشيء من الظلم

30 - المعنى في أبواب التوحيد والعدل ج 20 ص 39 القسم 2

وتتحفز للمطالبة بحقها المكتسب من مورد النص، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني أبو بكر وعمر³¹.

هذا في الوقت الذي كان فيه أبو بكر وهو في أوج ثرائه يعيش في مستوى المواطن العادي من الراتب الذي خصص له بعد توليه الخلافة منصرفا لخدمة شؤون المسلمين، ولا يخلف بعد موته شيئا يورث، وكان قبل يشتغل بالتجارة. وعمر بن الخطاب يموت ويترك ديونا سيؤديها عنه ابنه، وعاش في مستوى المواطن الكادح الملتزم بأسلوب العيش اليومي البسيط وكان يردد " والله لا يحل لعمر من مال المسلمين الأهلثان حلة للصيف وحلة للشتاء، وقوتي وقوت عيالي كرجل من قريش لبس ياغناهم ولا بأفقرهم³². وعلي بن زبي طالب يترك وراءه ثلاث مائة درهم. وكان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار، ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار³³.

يصل إلى المدينة يوما بعض أموال الأقاليم فتذهب إلى عمر رضي الله عنه ابنته حفصة لتأخذ نصيبها وتقول له : ياأمير المؤمنين، حق أقاربك في هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين فيجيبها : يابنية حق أقربائي في مالي أما هذا فمال المسلمين قومي إلى بيتك "

صحيح أن عمر من خلال سياسته في العطاء المبنية على التفضيل " لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه " قد ساهم في نمو الأرستقراطية القرشية لكنه كان يمنع أصحابها من الانتشار في أرجاء الامبراطورية وعيا منه بميل النفس البشرية إلى التهافت على حطام الدنيا في غياب الوازع الديني والقانون الذي يضبطه .

31. جمال الدين الأفغاني : الأعمال الكاملة دراسة وتحقيق محمد عمارة القاهرة 1967 .

32. الطبري : سيرة عمر

33. المسعودي : مروج الذهب ص 175- 177

أمام هذه التناقضات التي عرفها عصرا عثمان، وهذا الانحراف في التصرف في مال المسلمين أثارت المظالم الاجتماعية نفوس الناس، وهم يشاهدون السلطة الحاكمة التي من المفروض أن تسير في الناس سيرة المسؤول، تتصرف في أموال الدولة - التي هي حق لجميع الناس على السواء بحرية مطلقة عن طريق الحيازة والامتلاك . وتبلورت حركة جماهيرية قاعدتها الفقراء والاراذل يتزعمها المسلم الثائر أبو ذر العفاري المناهض لسيادة الاستغلال الاقتصادي، كردة اقطاعية عن تعاليم الإسلام المأهضة لهذا الواقع، وتندد بهذه التحولات الناتجة عن انحراف عثمان في السنوات الست الأخيرة، وولاية "الأقاليم الذين لا يتصرفون كمن وكلت إليهم رعاية أموال المسلمين لصالح كافتهم»

يصور ذلك الوضع جواب عمر بن عبد العزيز لعمته فاطمة بنت مروان مبعوثة الأسرة الأموية الحاكمة المطالبة بالعدول عن مصادرة ممتلكاتهم وردها إلى ملكية الأمة.

" إن الله تعالى بعث محمدا رحمة - لم يعثه عذابا - إلى الناس كافة . ثم اختار له ماعنده، فترك لهم نهرا شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عمل صاحبه، فلما ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهرا، ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار، ثم لم يزل ذلك النهر يشتق منه يزيد ومروان وعبد الملك وسليمان، حتى أفض الأمر لي وقد يس النهر الأعظم ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه ³⁴"

روى الواقدي بإسناده عن المسور بن عتبة قال : سمعت عثمان يقول : إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال طلاق أنفسها وذوي

34- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص 132

أرحامهما، وأنا تأولت فيه صلة رحمي . وكان بحضرته زياد بن عبيد مولى الحرث بن كلدة الثقفي، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البصرة فجعل يقسمه بين أهله وولده بالصحاف، فبكى زياد، فقال لا تبك فإن عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي ابتغاء وجه الله .

وكان يعتبر خزان بيت المال خزاناً له ويتصرف على هذا الأساس. روي أن الوليد بن عتبة والي الكوفة أخا عثمان لأمه اقترض من بيت المال مبلغاً ولم يسدده، فتقدم إليه عبد الله بن مسعود عامل بيت المال يطلب منه سداده فماتل، فاشتكاه إلى عثمان فأجابه قائلاً : إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من مال فاستقال ابن مسعود وقال : كنت أظن أنني خازن المسلمين فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك ³⁵ . وكان يقول موضحاً تصرفاته " مالي لأفعل في الفضل ما أريد فلم كنت إماماً إذن ³⁶ .

ووضع يزيد بن الأرقم صاحب بيت المال المفاتيح بين يديه وبكى . فقال له عثمان : "أتبكي أن وصلت رحمي قال : لا، ولكنني أبكي لأنني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقت في سبيل الله أيام رسول الله ³⁷ .

مصالح الأمة من المفروض أن تعني مصالح الأغلبية لا مصالح الأقلية. وموقف عثمان في تأويله موقف مرفوض أساساً لأنه يرفع مصالح الأقلية، وتأويله يتعارض مع الوحي وأهداف الشريعة الإسلامية التي هي في حقيقة أمرها وضعية مادامت قائمة على الفهم البشري (الفقهاء) لمصادر الإسلام (القرآن والسنة)

35- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي ص 183

36- ابن قتيبة الامامة والسياسة ج 1 ص 28 .

37- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج 1 ص 67

نارت عائشة مثلما نارت علي على هذه الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية التي ولدتها التطورات السياسية والإدارية. وكانت ترى بأنه قد أحدث وإحداثه يستحق الخلع ، لكن عثمان ظل متمسكا بالقميص الذي ألبسه الله إياه على حد تعبيره.

ولم تتخرج عائشة منذ توليه الخلافة من التعرض لسياسته بالنقد والاعتراض على الكثير من أعماله، خصوصا وصله رهط بني أمية. كما أنكرت عليه وهو على المنبر وعلى مسمع الجميع موقفه من عبد الله بن مسعود، وانتقدت سيرة عماله في الناس حتى تراءى للكثير أنها من المحرضين عليه . وأقوالها فيه وفي كل من يزيغ عن الجادة معروفة .

روى الواقدي في كتاب الدار : " أن مروان بن الحكم لما حضر عثمان الحصر الأخير أتى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكلمها في هذا الأمر. فمضيا إليها وهي عازمة على الحج فكلمها في أن تقيم وتدب عنه فأقبلت على زيد وقالت : ومامنك يابن ثابت ولك الأسارى قد أقطعكها عثمان، ولك كذا وكذا، وأعطاك من بيت المال عشرة آلاف دينار. فقال زيد : فلم أرجع عليها حرفا واحدا، وأشارت إلى مروان بالقيام، فقام مروان وهو يقول : حرب تبس على البلاد، حتى إذا اضطربت قدماء، نادته عائشة وقد خرج من العتبة : يابن الحكم أعلي تمثل الأشعار ! قد والله سمعت ماقلت : اتراني في شك من صاحبك ! والذي نفسي بيده أنه الآن في غرارة في غرائري مخيصا عليه فالقية في البحر الأخضر، قال زيد، فخرجنا من عندها على اليأس منها، وكان عثمان قد أقطع مروان بن الحكم فذلك، وسبق أن طلبته فاطمة الزهراء فصرفت عنه في خلافة أبي بكر الصديق !!! .

كان للغنائم والأموال دور كبير في تحريك طلحة والزبير ضد علي الذي لم يكن أشد على عثمان منهما . وما المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان سوى ستارا أخفيا وراءه رغبتها الأكيدة في الحكم، وبالأخص بعد أن عين الولاة ولم يمكنها من ولاية أي مصر . وقد كانا من ذوي البلاء والسابقة في الإسلام، قدما له أعمالا خالدة طيلة ثلاثة عقود . كان طلحة يطمع في ولاية اليمن، والزبير في ولاية العراق (...) أيضا خوفهما من العودة إلى دستورية الحكم لمعرفتها لفكر علي الثوري ضد التمايز الطبقي الذي استشرى في عهد الخليفة المقتول . وقد صرح بذلك في الخطبة التي ألقاها بعد البيعة مباشرة : " فأنتم عباد الله، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية، لأفضل فيه لأحد على أحد وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب . ولم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرا ولا ثوابا، وما عند الله خير للإبرار . وإذا كان غدا إن شاء الله - فاغدوا علينا فإن عندنا مالا نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم عربي ولا عجمي كان في أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر »، هذا القرار الخطير الناتج عن موقف فكري يلغي اتخاذ السبق إلى الإسلام والفضل في الدين ستارا وسبيلا لجمع الثروات والأموال شكل معارضة كبيرة لعلي :

* انشقاق طلحة والزبير ونكثها للبيعة وهما نواة أرستقراطية ثيوقراطية تولت الصدارة بعد وفاة الرسول (ص)

* إعلان الحلف الأموي الأرستقراطية القديمة برئاسة معاوية الحرب ضد سياسة علي الاجتماعية بعد أن قفز على مسرح الحياة منذ خلافة عثمان.

* إقبال الأشراف والأغنياء من الذين بايعوا في المدينة والأقاليم على التسلل إلى الشام والانضمام لجيش معاوية، وسيظل علي متمسكا بموقفه رغم إدراكه للمخاطر التي تهدد سلطته وكيانه، بالمضمون الاجتماعي الاقتصادي للمواطنة : فالعلاقة بين حب الإنسان لوطنه مبنية أساسا على مايقدمه له هذا الوطن من وسائل مادية ومعنوية تمكنه من العيش الكريم . وهو ماعبر عنه علي بقوله :

الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة والمقل غريب في بلدته .³⁸

الأسباب الحقيقية للثورة ضد علي لم تكن تعبر عنها الشعارات المرفوعة بل كانت الثورة ضد فكره التقدمي الذي يسعى إلى الانقلاب الاجتماعي بإلغاء التمييز بين الناس في العطاء وإقرار مبدأ المساواة ومجتمع الأخوة. . . " ألا لايقولن رجالا منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارا وشناراً، إذا مامنتهم ما يخوضون فيه، وقيدتهم إلى حقوقهم التي يعلمون فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون حرما ابن أبي طالب حقوقنا، موقف استنكره الأغنياء والإشراف، أن يتساووا بمن كانوا موالي وارقاء عندهم بالأمس القريب".

قال سهل بن حنيف يأمر المومنين هذا غلامي بالأمس، وقد اعتقته اليوم ؟ فقال علي : نعطيهِ كما نعطيك، فاعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل أحداً على الآخر³⁹.

يؤكد مانذهب إليه الحوار الذي دار بينه وبين المعارضين الكبيرين طلحة والزبير قال علي :

³⁹ - نهج البلاغة ج 7 ص 38.

ما الذي كرهتها من أمري حتى رأيتما خلافي. أجابا خلافاً لك عمر بن الخطاب في القسم. أنك جعلت حقنا كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسياقتنا ورماحتنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورحلنا، وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسراً قهراً من من لا يرى الإسلام إلا كرهاً.

قال علي : أما القسم والاسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء، فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من لدن حكيم حميد، وأما قولكم جعلت فينا وما أفاءته سيوفنا ورماحتنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقد سبق إلى الإسلام قوم نصره بسيفهم ورماحتهم فلم يفضلهم رسول الله في القسم ولا أثرهم بالسيف. والله موف السابقين والمجاهدين يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا.

قال الزبير في ملا من الناس : هذا جزاؤنا من علي، أقمنا له في أمر عثمان حتى قتل، فلما بلغ ما أراد جعل فوقنا من كنا فوقه. وقد تحدث علي في ذلك فقال : لو أمرت به لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه لكنت ناصراً".

وتجمع المصادر أن طلحة والزبير كانا المحركين المباشرين للثورة على عثمان. وأنهما كانا وراء الرسالة التي أرسلت باسم الصحابة إلى الأمصار تدعو المجاهدين إلى القدوم إلى المدينة .

و من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين وبعد :

فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسول الله قد غيرت، وأحكام الخليفة قد بدلت فننشد الله من قرأ كتابنا من أصحاب رسول الله، والتابعين بإحسان إلا أقبل علينا وأخذ الحق لنا وأعطيناه، فأقبلوا إلينا (...) على حقنا،

واستولى على فيثنا، وحيل بيننا وبين أمرنا. وكان طلحة يحرض أهل الكوفة وأهل البصرة على عثمان وعندما ناداه عثمان وهو يشكو من الحصار رد عليه «لأنك بدلت وغيرت»⁴⁰

أما علي بن أبي طالب فإن المصادر السننية والشيعية (ماعد الخوارج) تتجنب اتهامه وتبرز عمله كوسيط بينه وبين الثوار، بل كان عثمان يرجع إليه كلما اشتد عليه الأمر»

ورد على الذين عاتبوه في هذا الشأن : أتأمرني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور به⁴¹.

فعلي يمثل الاتجاه الإسلامي الخالص الذي طبقه أبو بكر، وأرسى قواعده عمر بشدته وصرامته . وطبيعة التركيبة الاجتماعية الجديدة للدولة لم تعد في صالحه، فالاتجاه الجديد الذي بدأ يثبت قواعده من الناحية الواقعية في الست سنوات الأخيرة من خلافة عثمان يؤكد تواجد أنوية لتيارات مختلفة تفجر كيان المجتمع الإسلامي منذ وقت مبكر ليتجلى بوضوح في أحداث الفتنة ونتائجها على خلافة علي الذي عاش أكبر انشطار سياسي عرفته الرسالة .

* نخذلان أهل الكوفة له حتى تضجر منهم : " إن لم يكن في الدين ملك إلا ملك الكوفة ذات الفتنة أبعدنا الله!

* عصيان أهل العراق " اللهم أني مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني فابدلني خيرا منهم وأبدلهم شرا مني"

40- ابن قتيبة الأمانة والسياسة ج 1 ص 35

41- نهج البلاغة ص 151

* استشار معاوية دون غيره ، يا يعاز من عثمان الذي ضم إليه ولاية حمص وفلسطين بخير ما في الدولة من الأمصار والأقاليم، وميل أهل الشام إليه : " ليس من شك في أن عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أتبع له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان وتثبيتها في بني أمية. فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية فضم إليه فلسطين وحمص وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الإرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر، فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهداً، وأقواهم جنداً وأملكهم لقلب رعيته⁴² وكان وحده يدير الصراع القائم بين الخلافة ونظام الملك ويوجهه بشطارته ومكره.

* الذين خرجوا عنه لقبوله التحكيم وهم خيرة رجاله واخلص جنده في معركة الجمل وأكثرهم حماساً لقتال خصمه معاوية وهم الذين ثاروا عليه (الخوارج) .

• ابعاد عاملين أساسيين عن الحياة السياسية الفعلية للدولة الإسلامية، الشباب والنساء . فالشباب كان معظمهم في طور الطفولة مع بداية الرسالة، لكنهم حينما أصبحوا مهيتين كغيرهم للمشاركة في الحكم والولاية وجدوها حكراً على الشيوخ والصحابة أو من آثرهم عثمان وخصهم بالمناصب والأعمال، وهم لا يمتازون عن غيرهم. كتب الاشر إلى عثمان يقول :

من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطي الحائد عن سنه نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره، أما بعد :

42- طه حسين الأعمال الكاملة لخلقاء الراشدون ج 4 ص 315

فقد قرأنا كتابك، فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمع لك بطاعتنا، وزعمت قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنك الذي أرداك فارك الجور عدلا والباطل حقا، وأما محبتنا فإن تنزع وتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا، وتسييرك صلحائنا وإخراجك إيانا عن ديارنا، وتولييتك الإحداث علينا وأن تولي مصرنا عبد الله بن قيس وأبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضينا حلما، واحبس وليدك وسعيدك ومن يدعوك إلى الهوى من أهل بيتك إنشاء الله والسلام⁴³

* طغيان سلطان المال على النفوس وضعف الوزع الديني وظهور الملكية العقارية الضخمة التي صنفت الأفراد الذين عاشوا في إطار العدالة الاجتماعية إلى طبقات .

- طبقة أرستقراطية المولد والثراء والسلطان لا تجد ماتشغل به نفسها غير الشعر والغناء والرقص.

- طبقة الرقيق والبؤساء التي تعمل في الضياع المترامية الأطراف التي تملكها الطبقة الأولى.

- الطبقة المتوسطة التي تنازعها الأغنياء وفرقوها إلى أحزاب وشيع .

أما عائشة فلم تكن من الأرستقراطية القريشية " الحديثة ولا استهوتها الأطماع فكدست الأموال، واقتنت الضياع ولا انساقت وراء العvisية القبلية، بل عارضت لأجل المبدأ ولخبرتها الدقيقة ببواطن الأمور، لا لأنها كانت ضعيفة مطاعة، قليلة الخبرة بال جماهير الحاشدة وتفاعلاتها فأساءت التقدير⁴⁴ فهي لم تكن مصدر الفتنة كما يقال وسبقت الإشارة

43. طه حسين : الأعمال الكاملة الخلفاء الراشدون ج 4 ص 324 325

44. عبد السلام ياسين تنوير المومنات ج 2 ص 316

إلى مصادرها الرئيسية، بل كانت ترى أن البحث عن قتله الخليفة أمر ضروري وعبرت عن موقفها بصراحة " أن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه والبدو والأعراب، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام "

وإذا كانت الفقيهة مقصد الصحابة والصحابيات بعد وفاة الرسول (ص) يستفتونها في العلم فتفتهم منه ، وإذا كانت قد روت أكثر من ألفي حديث، وصححت لمجموعة من الصحابة على رأسهم أبو هريرة ، ألم يكن من واجبه أن تتصرف كما فعلت، ومن موقعها كأحد أعمدة الفقه ، والله تعالى يقول في محكم كتابه .

ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذاباً عظيماً⁴⁵ .

فالإسلام يحتفظ للفرد بحق الحياة الآمنة المطمئنة التي لا يشوبها خوف ولا تهديد، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يسلبها منه بقتل أو اعتداء حتى الجنين في بطن أمه - ومن يفعل ذلك يعد في نظره مجرماً يقام عليه الحد " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " ⁴⁶ وحقوق الإنسان يجب أن تتمتع بحماية النظام والقانون وإلا سيلجأ إلى التمرد والطغيان والاضطهاد . وهذا ما كانت تقصده الحميراء : الكشف عن الحركة المسلحة التي أودت بحياة الخليفة ومعاقبتها، ثم جعل الأمر شورى بين الناس، يختارون خليفتهم . الحقيقة أن مواقف الناس تباينت منه إبان محنته فنة

* من الصحابييات اللاتي يسألن في الفرائض أم سليم - أم الدرداء ، فاطمة بنت قيس
45 - سورة النساء الآية 92 .

46 - سورة البقرة الآية 179 .

قتله، وفئة حرضت على قتله، وفئة خذلته، وأخرى عجزت عن نصرته، وكان بوسع الثوار أن يتجنبوا قتله ويقتصروا على حبسه ومصادرة أمواله .

وقد سبق لعائشة أن عاتبته حينما مس بحقوق الناس ومصالحهم وحررياتهم، فكيف لاتقف وقفة صارمة أمام الذين اعتدوا على حق من حقوق الله. فالله هو واهب الحياة وهو وحده الذي بإمكانه أن ينزعها من صاحبها!

بات الجمل الأحمر

كثيرة هي الحقائق والمعطيات التي تجعل الباحث في كتب التاريخ والسير يتوصل إلى أنه لولا طمع طلحة والزبير في الخلافة أو المشاركة فيها على الأقل ما حدثت حرب الجمل ! لكن يصعب عليه أن يصدق أن الحرب ما كان لها أن تقع لولا أن عاتشة كانت تكره عليا منذ حادثة الأفلك وأشياء أخرى (...). !!! لقد حملت حرب الجمل التي قادتها البطلة اعنف أشكال الصراع السياسي إلى المجتمع الإسلامي، وماعكسه من مكونات أولية للصراع الاجتماعي، واتخذت شكلا دينيا رغم أن جوهرها اجتماعي سياسي بالأساس فما هي البيئة التي صقلت هذه الشخصية التي لم ينصفها التاريخ !

فالحميراء ابنة أبي بكر الصديق اعلم العرب بالعرب، وارواها لمناقبها ومثالبها، واعرفها، بخيرها وشرها. كان ذا مال وفير وتجارة واسعة يجتمع إلى مجلسه كبراء أهل مكة لما يجدون عنده من طريف الحديث وغريب الشعر. كان بيته خلية إسلامية تشكل أعضاؤها من أبنائه . تقول أسماء "ماعرفت أبي إلا وهو يدين بالدين، وقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فمارنا حتى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه " .

ولم يتوانى في انفاق ماله الذي كان ثمرة كده وسعيه وكفاحه في سبيل نشر الدعوة . لقي في مسجده الذي بناه على بابه في بني جمع حيث رغب عن جوار الكل راغبا في جوار ربه جميع أنواع المكار ، متجرعا المرارة في صبر وثبات. كان محبوبا لأدبه وعلمه وعذب حديثه واستمالاته الناس إلى الدين الجديد حتى قيل عنه " لمن أسلم بدعاء أبي بكر أكثر ممن أسلم بالسيف " وضمن الذين أسلموا على يديه خمسة من أهل الشورى : طلحة والزبير. عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وسعيد بن العاص (...). وأوذي حتى بلغ جهده واستأذن النبي (ص) في الهجرة فإذن له

بل يريد المدينة فتلقاه الكتاني سيد الاحايش فعقد له جوارا وقال : " والله ادع مثلك يخرج من بين اخشبي مكة " فلما عاد إلى مكة عاد إلى سجدته وصنيعه . فمشت قريش إلى جاره وعظموه الأمر قائلين : قد أفسد أحداثنا وعبيدنا واماءنا ونساءنا في منازلنا !! فمضى إليه الكتاني وقال له : ليس على هذا أعطيتك الجوار . ادخل بيتك واصنع به ما بدا لك ! قال أبو بكر أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ فلما قطعوا الجوار وترادا العهد لقي أبو بكر رضي الله عنه من الأذى والذل والضرب والاستخفاف⁴⁷ ، حتى إذا جاءه (ص) بعد ثلاثة عشرة سنة من الصحبة، ونزل على سريريه في وقت لم يكن الصديق ينتظره فيه ليخبره أن الله قد أذن له في الهجرة، ولم يكن بالبيت غير عائشة وأسماء اللتين جهزتا لهما الراحلتين ولم يعلم بخروجها غيرهما وعبد الله - قتل الطائف - أخوهما الذي كان يتجسس لهما أخبار مكة يبيت عندها ويدلج في السحر ويصبح مع قريش . ولم يطلع على أمرهما غير عامر بن فهيرة وأسماء التي كانت تأتيهما بالقرت (...) من هذه الأسرة المناضلة خرجت الحميراء لتكون زوجة لأول سياسي وأول قائد وأول حاكم في الإسلام .

لئن كانت نجد على علي ماتجد عليه فلن يكون خروجها لإثارة الفتنة والنيل منه مبنيًا على ما ينطوي عليه قلبها من الشنآن . جاءها يوم الجمل وهي على هودجها عبد الله بن بذيل بن ورقاء الخزاعي فقال لها : يا أم المؤمنين أتعلمين أنني أتيتك عندما قتل عثمان فقلت : مات أمرنني فقلت : ألزم علياً . ولم تكن عائشة في فترة من فترات حياتها بالمرأة التي يستهويها ما يستهوي النساء مما يدخل في إطار الشؤون الميدانية الخاصة بهن تبعاً لتقسيم الأدوار المتعارف عليه، لقد كانت الفقيهة نسيجا وحدها في متابعة كل ما يجري من أحداث العالم الخارجي الذي كان مقصوراً على الرجال،

47- المجاحظ : الرسائل السياسية ص 145

* عامر بن مهبرة وأي أبي بكر وعتيبة ثلاث مرات

وعايشة عن قرب الأحداث والظروف التي واكبت بيعة الخلفاء الراشدين، والمشكلة الأولى التي واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) لعدم وجود أي نص مكتوب أو غير مكتوب يبين شكل الحكم في الإسلام أو كيفية تعيين الخليفة، انطلاقاً من بيعة أبيها وماحدث فيها من جدل بين زعماء الأنصار والمهاجرين في السقيفة.

أولاً : حول تحديد الذين يحق لهم اختيار الخليفة، حيث جرى حصرهم في الأنصار والمهاجرين واستثنوا الذين أسلموا بعد الفتح (لا هجرة بعد الفتح) .

ثانياً : تحديد القبيلة التي يجب أن يختار منها الخليفة وهي المشكلة التي قامت حولها نزاعات حادة، وملامنت بين الأنصار والمهاجرين حيث كانت كل فئة ترى نفسها الأجدر بأن يختار خليفة المسلمين منها .

فالأنصار احتجوا بكون الهجرة كانت إلى ديارهم والإسلام لم ينتشر إلا بفضلهم، إذ هم الذين آووا الرسول ونصروه وأخضعوا العرب بسيفهم إلى الإسلام.

واحتج المهاجرون بأنهم عشيرة النبي والخلافة يجب أن تكون فيهم طبقاً للأعراف والتقاليد السائدة وأسندوا للنبي قوله " الخلافة في قريش " أو " الإمامة في قريش " 48 .

وخطب الحباب بن المنذر زعيم الأنصار مبيناً فضلهم وختم بقوله : فإن أبي هؤلاء إلا ماسمعتهم " قمنا أمير ومنهم أمير " فأجابه عمر بن الخطاب : «هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد» والله لا ترضى العرب

أن تؤمركم ونبيها من غيركم . ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولو الأمر منهم. لنا بذلك على من خالفنا الحجة الظاهرة والسلطان المبين.

من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أوليائه وعشيرته إلا مدل باطل أو متجانف لائم أو متورط في هلكة⁴⁹.

وحدث انقسام في صفوف الأنصار، فمال بشير بن سعد الخزرجي عن ابن عمه سعد بن عباد لما رأى التحام الناس حوله، وانقسام آخر في صفوف المهاجرين إذ اعترض بنو هاشم على انتخاب أبي بكر لكونه لا ينتمي إلى أسرة رسول الله، مما يتعارض والأعراف السائدة في الجزيرة، نحن إذن أمام ثلاثة أجنحة .

* جناح سعد بن عباد والحياب بن المنذر .

* جناح أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح .

* جناح علي بن أبي طالب وفاطمة (بنو هاشم) الذين لم يبايعوا أبابكر في الاجتماع الذي عقد في المسجد في اليوم الموالي، ولما سأل علي الذي غاب عن اجتماع السقيفة لانشغاله بتجهيز الرسول ودفنه : ماذا قالت قريش : أجابوه

احتجبت بأنها شجرة رسول الله .

قال : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

ولم يقدم علي على المطالبة بالخلافة خوفا من انقسام المسلمين وتعرض الإسلام للخطر .

49- أبو جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2 ص 243

تأكدت الفقيه أن الخلافة خضعت لعملية الانتقاء أولا، والتوجه السياسي الذي يقتضي الكفاءة والمقدرة ومصلحة الدولة ثانيا، وأن أباهما أصبح رئيسا بفضل القوة البشرية التي ساندته . فرغم الخلاف الحاد الذي شهدته السقيفة فالجميع أقر في النهاية لأبيها بالخلافة لميل الكفة لجهته . واستوعبت أن عمر هو الذي شيد هذه البيعة ، وقزم رقم المخالفين، معتمدا على منطق عشائري " إن العرب لاترضي أن تؤمركم ونبههم من غيركم ! ولكن العرب إنما تولي أمرها لمن كانت النبوة فيهم ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين " ثم أضاف " من ذا الذي ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته " ⁵⁰ وحسم الصراع لصالح الأرستقراطية التيقراطية .

وسبق لأبي بكر أن فصل بالعبارة لاتدين العرب إلا لهذا الحي من قريش . وروى عن النبي " الأئمة من قريش " حديث شكل محور بناء السلطة الإسلامية رابطا الخلافة مباشرة بعلاقات انتاج الإنسان . وهي مسألة شغلت الحيز الكبير من مفهوم العصية عند ابن خلدون والمارودي في الأحكام السلطانية.

وقبل موت أبي بكر أخذ البيعة لعمر بن الخطاب من بعده، وانحصرت المعارضة في كبار الصحابة لخوفهم عمر وشدته في الحق، لكن سرعان ما لتفوا حوله وبايعوه إقرارا له بمكانته التاريخية . انتقال الخلافة بهذه الطريقة كان أمرا طبيعيا لأن الشيخين كانا بمثابة وزيري الرسول في حياته، يدير الأمور بمشاركتها . وقبل أن يموت عمر بطعنات خنجر أبي لؤلؤة ترك أمر الخلافة بين عدد من الصحابة حصرهم في ستة، معتبرا سبقهم إلى الإسلام وبلاءهم في الجهاد لانتشاره، يختارون خليفة من بينهم دون أن يقع اختياره على واحد بعينه كما فعل أبوبكر، وحصر مدة الاختيار في ثلاثة أيام .

50 . تاريخ العرب ج 3 ص 218 - 223

* أهل الشورى : علي بن أبي طالب عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله ثم استدعى هؤلاء الستة وقال لهم : إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر فيكم. وقد قبض رسول الله (ص) وهو راض عنكم ثم أضاف إليهم ابنه عبد الله يحضر مستشارا ولا يكون له من الأمر شيء 51.

من هنا يمكن الحديث عن بداية الصراع والتسابق نحو السلطة إذ دبت الأطماع في قلوب الستة وجعل كل واحد منهم يرى نفسه مؤهلا لها . كما أن عمر في اختياره اعتمد على المهاجرين مستنبا الأنصار !!! هذه المرحلة شكلت بداية المشاحنات التي سيشهدها فضاء الحياة الإسلامية . والتي ستؤدي إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان الذي كان عمر قد حذره يوم اختياره لأعضاء مجلس الشورى من تسليط أقاربه على رقاب الناس. " لكاني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وأثرتهم بالفئ 52.

لم تكن عاتشة غائبة عن الأحداث الرئيسية في الحياة الإسلامية، أو تعيش على هامشها ، بل كانت تعيشها من داخلها وتأملها بفكر ناقد . استوعبت أحداث السقيفة، والكيفية التي انتقلت بها السلطة إلى الخليفة الثالث، وهي مخالفة لتلك التي ولي بواسطتها أبوها وعمر بن الخطاب. الاختيار الآن أصبح بيد القادة الكبار والأغنياء والتجار، وعثمان لم يكن متميزا عن بقية أعضاء مجلس الشورى وإنما كان واحدا منهم . ، والمناقشة على الخلافة قد دخلت مرحلة جديدة يمكن اعتبارها سابقة، أصبحت بين

51. ابن قتيبة ج 2 ص 580

52. ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج 7 ص 62 .

رجال الصف الثاني، وهؤلاء لا يتميزون عنها لا بعلم ولا بفقه ولا بجهد سوى أنهم ذكور .

لذا كان موقفها في حرب الجمل موقف المؤمن بقضية والمستमित في الدفاع عنها بوعي ومسؤولية، بعدما تكونت لديها القناعة بأن القوة البشرية هي مصدر السلطة، وهي حقيقة أفرزتها تطورات حياة المجتمع.

تولى الخلافة عثمان بن عفان ورقة الأمة الإسلامية قد توسعت، وأصبح المسلمون سادة العالم لا يخافون من تهديد خارجي أو قتال يداهمهم. مضت مرحلة الجهاد لتحل محلها مرحلة المصالح والأغراض والمطامع والتهاافت على حطام الدنيا، في غياب الوازع الأخلاقي وعجز مؤسسات الدولة وتشريعاتها على مواكبة هذا التوسع، وتفاقم المشاكل في عهد عثمان الذي أنسخ المجال لذوي النفوذ من أقاربه وأصحاب المصالح، فأصبحوا هم صانعي القرار. ولكن تشريع الدولة بقي رهينا باجتهادات المسلمين حسب ماتقتضيه ظروفهم في عهد الرسول وأبو بكر وعمر. فتطور الدولة العربية الإسلامية مع الفتوحات وتدفق الغنائم وانتشار رقعة الإسلام جعل النظام عاجزا عن استيعاب هذه التطورات والمستجدات الاجتماعية والحضارية. فرفض عثمان انتقادات الثوار لأنه كان يرى أن من اختصاصه كخليفة التصرف في شؤون الدولة دون قيد. قالوا له وقد استفحل الأمر " والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أودع " لكنه أصرّ على البقاء قائلا " لم أكن لأخلع سربا لاسربلنيه الله " فحاصروه أربعين ليلة ثم تسوروا الجدار وقتلوه.

وبقتله تسلت الاطماع السياسية إلى القلوب وبدأ التخطيط للاقتال من أجل السلطة.

لم يكن عثمان ودمه هو سبب قيام الفتنة، بل الهدف الرئيسي هو البحث عن السلطة. تولى عهد الخلفاء التاريخيين وهي تجربة ارتبطت بالأعراف والمؤسسات والعلائق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمع مكة والمدينة المجسد في المجتمع الإسلامي الأول. تمناها طلحة لنفسه بعد أبي بكر، واستطاع تأليف قلوب قريش في آخر خلافة عثمان هو والزيير. وبمقتل عثمان أصبح كل واحد يراها لنفسه دون منازع، تحالفا مع عائشة لأنها كانت مسموعة الكلمة، ومحترمة من طرف المسلمين عامة، فما سر تحالفها معها ؟ !

كانت عائشة طيلة حيائها تجاهر بلسانها، أقوالها في عثمان معروفة . فقد كانت على رأس الناقمين عليه والمناوئين للطريقة التي ساس بها الأمة. ثورتها كانت للطريقة الوحشية التي اعتدي بها عليه والتي تمس كرامة المواطن والدولة الإسلامية في جوهرها «كان الذي كان من قتل عثمان (ض) وما انتهك منه ، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبعج بطنه بالحراب، وفري أوداجه بالمشاقص، وشخذ هامته بالعمد، مع كفه السبط ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة وصلى للقبلة وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه بحضرته واقحام الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها حتى أظنوا أصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم وكاسرا من غربهم، مع وطئهم في أضلاعه بعد موته والقائهم على المزبلة جسده مجردا بعد سحبه (...) بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم واقحامه لهم، ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام كدم المؤمن الآمن ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطية ، ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة ولا يجهز منها على

جريح . ثم مع ذلك كله دمروا عليه وعلى أزواجه وحرمه وهو جالس في محرابه ، ومصحفه يلوح في حجره لا يرى أن موحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله " 53 .

إضافة إلى التصرفات اللاديمقراطية واللاإنسانية التي انتهجها في حق بعض الصحابة كابن مسعود، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري. أما القتل فكانت تترقعه ألم تقل حين سمعت الخبر " قتله ذنبه " وحتى المستحق للقتل فلا يجوز أن يمنع عنه الطعام والشراب. فعلى عليه السلام لم يمنع أهل الشام الماء في حرب صفين وهو يقاتلهم فكيف لعثمان الذي لم يقع الإجماع على خلعه ولا على إباحت دمه !!!

كيف لاتنزعج بمثل هذه الطريقة في القتل، ولاتعتبرها ظلما وهي صحابية وابنة صحابي، وزوجة حامل الرسالة، وفقهاء الإسلام البارزة، "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء" وهذا ما عبر عنه أبو الأسود الدؤلي قال : بعثني وعمران بن حصين * عثمان بن حنيف إلى عائشة فقلنا : يأأم المؤمنين أخبرينا عن مسيرك أهذا عهد عهده رسول الله (ص) أم رأي رأيته ؟

قالت : بل هو رأي رأيته حين قتل الخليفة، انا نقمنا عليه ضربه بالسوط وموقع السحابة المحماة 54 وأمرة سعيد والوليد 55 فعدوتم عليه واستحللتم منه الحرم الثلاث : حرمة البلد وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام، بعد أن مصناه كما يماص الإناء فاستقي، فركبتم منه هذه ظالمين ! فغضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيفكم ! .

53 - رسائل الجاحظ، الرسائل الكلامية، كشف آثار الجاحظ ص 139 - 140

* عمران بن حصين الخزاعي، كان من أفاضل الصحابة مات بالبصرة سنة 52 هـ

54 - الأرض التي حماها عمر لرعي إبل الصدقة فلا يرعى فيها أحد غير تلك الإبل

55 - سعيد بن العاص والوليد بن عقبة

قلت فما أنت وسيفنا وسوط عثمان، وأنت حبيس رسول الله أمرك
أن تقر في بيتك، فجئت تضر بين الناس بعضهم ببعض. قالت : وهل أحد
يقاتلني أو تقول غير هذا !!

ماحدث في عهد عثمان يستوجب الثورة فعلا لأنه خرج عن العدل
والمساواة وبدأ يتعامل مع أموال الدولة وكأنها أمواله الخاصة، وانحرف عن
العدل الاجتماعي وبدأ النمط الإقطاعي يسود في خلافته. ذكر البلاذري إن
أول من أقطع العراق عثمان ⁵⁶ وكان يقبض ضياعا تدر عليه مائة ألف دينار
سنويا ⁵⁷ وخص بني جلدته من الأرسقراطية السفينية بمعظم الإقطاعيات في
الحجاز أو الولايات، وحسب مراعي المدينة، وجعلها حكرا على دواب بني
أمية ⁵⁸ وتحولت الصوافي التي كانت موقوفة على بيت المال إلى إقطاعيات
له ولذويه ⁵⁹ وقفزت الأرسقراطية القديمة على حساب الأرسقراطية
البيوقراطية .

وتبلورت التيارات الاجتماعية وتطورت إلى تيارات سياسية التقت
حول قيادتها ، وهي الخطوة التي مهدت لظهور الأحزاب بعد مقتل عثمان،
مما يؤكد تأثير الأساس الاقتصادي في صياغة التيارات السياسية. وانقسم
الناس إلى ثلاث طوائف :

* فرقة أقامت على خلافة علي بن أبي طالب

* فرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وهم سعد بن أبي وقاص ، عبد الله
بن عمر بن الخطاب ومحمد بن أبي بكر.

* أصحاب الجمل .

56- فتوح البلدان القاهرة 1901 ص 183

57- المسعودي مروج الذهب ج 1 ص 301 سنة 1303 هـ

58- يحيى بن آدم الخراج القاهرة 1347 هـ ص 79

59- أحمد أمين فجر الإسلام ص 238 .

أما تكتلها مع طلحة والزبير فقد يكون من أجل استراتيجية رسمتها في ذهنها لإدراكها أن السلطة أصبحت خاضعة للمنافسة بين المرشحين من رجال ألصف الثاني، وهي في مستواهم إن لم تكن تتميز عن بعضهم، والتركيبية الاجتماعية للدولة الجديدة لم تعد لصالح علي الذي لم يكد يتولى الخلافة حتى أعلن معاوية العصيان. ولكون المرأة عبر تاريخها الاجتماعي لا يمكنها البروز في المراكز القيادية إلا عبر الرجل فقد كانت الحميراء تعي أن طريقة الحكم مشروع سياسي سرّي يحاول الاهتداء بقيم الدين الذي لا يستثنيها من أن تكون طرفا فيه. الاختيار إذن أصبح اختيار مصالح ، وعلي لم يعد يهتم بالقصاص من قتله عثمان، بل كان يرعاهم ويعينهم في المناصب المهمة، فمالك الأشتر من قواده وكان يقول عنه " كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله، مع أنه كان من المحرضين على عثمان والساعين في قتله، كما كان علي من الذين أُلحوا على عثمان بمجرد تولية الخلافة أن يقتص من عبد الله بن عمر، قاتل الهرمزان وجفينة وبنت أبي لؤلؤة، والذي ثار لنفسه من غير بينة فقتل رجلا مسلما وقتل ذميين من غير الحق ودون أن يخوله السلطان قتلها، فكيف به لا يفعل نفس الشيء بالذين قتلوا الخليفة. ومعاوية كان بإمكانه أن يبعث إلى عثمان من الشام من يحميه !!! معطيات تؤكد الجوهر الدنيوي للمجتمع الإسلامي. أيضا ما يؤكد أن عاتشة رسمت استراتيجيتها الاتصالات التي قامت بها مع بعض أمهات المؤمنين أملا في تشكيل جبهة نسائية لا لانتزاع مجموعة من الحقوق فقط بل لتطبيق مامنحه إياها الوحي . فالقرآن نزل يخاطب الذكور والإناث على السواء، ولم ينزل فيه ما يمنعها في ممارسة حقوقها المدنية والسياسية على رأسها السلطة، التي لانص يستثنيها منها، وعدم النص على نظام الحكم دفع الصحابة إلى تبني النظام القبلي في اختيار

60- المارودي الأحكام السلطانية ص 42

61- الجاحظ : كتاب الإصابة فيما امتدركته عاتشة على الصحابة

الخليفة والقائم على الاستخلاف والشورى . و رئاسة القبيلة في النظام القبلي لم تكن وراثية بالمعنى المتعارف عليه، إذ يبقى الأمر شورى بين أهل الحل والعقد ."

الامامة تنعقد من وجهتين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد والثاني بعهد الامامة ⁶⁰ ومادامت المناقشة قد أصبحت بين رجال الصف الثاني فلم لا تكون المساواة في المناصب القيادية : فأولى الناس بالمسلمين اعلمهم بدينهم، وعائشة كانت تتقن العلوم وتورد الاشكالات على الفحول ، واستدركت على الصحابة في العديد من الأحاديث، كعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وابن عباس، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب وابن الزبير وزيد وأبي الدرداء وأبي سعيد والبراء وفاطمة بنت قيس ⁶¹

وصفات الإمام الأفضل هي العقل والعلم والحزم والعزم وهي متوفرة فيها، إضافة إلى علمها بالحلال والحرام والشعر والطب بالإضافة إلى أخذها بسيرة رسول الله (ص). وقضية الإمامة لها طابع فقهي تشريعي وحصر الماوردي شروطها في سبعة :

(1) العدالة

(2) العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والاحكام

(3) سلامة الأعضاء

(5) الرأي المفضي إلى سياسة الرعية

(6) الشجاعة والنجدة

(7) النسب (القرشي)

وابن عربي الفقيه المالكي يسقط النسب القرشي مستندا إلى قوله تعالى " ياداوود إنا جعلناك خليفة ، وهو غير قرشي .

ويربط ابن خلدون اشتراط النسب القرشي في الخليفة " باعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة " فالشوكة والقوة في صدر الإسلام كانت لقريش فكان اشتراط الشرع النسب القرشي بمثابة اشتراط القوة والغلبة أي الكفاية.

ولماذا لا يمكن الخروج عن الخليفة، وهو بشر قد يصيب وقد يخطئ؟
والخلافة ليست مركزا دينيا، والذين روجوا لهذا المفهوم هم السلاطين " طاعة الأئمة من طاعة الله " والرسول والخلفاء من بعده لم يضعوا أسسا للحكم، لكنهم اجتهدوا في تنفيذ مبادئه. وولاية الأمر تعني النظر في مصالح المسلمين، ولا غنى لولي الأمر عن المشاورة، وكان (ص) كثيرا المشاورة لأصحابه يمارس مسؤولياته وسط المسلمين كرسول، بإخضاعها لمسألة الشورى التي تنبني عليها الصحبة " فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ⁶²

فالحكم في الإسلام ع منذ هذ النبوة كان يقوم على الشورى

" وأمرهم شورى بينهم "

" شاورهم في الأمر "

وحديث رسول الله " أنتم أدرى بشؤون دنياكم " فيما ليس فيه نص مشهور .

62. سورة الشورى الآيات 32 إلى 52 .

والرعاية بمعنى حفظ الأمانة والمسؤولية التي تضمنها حديث " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته⁶³" موزعة على جميع أفراد المجتمع كل من واقع مسؤوليته التي هو مؤهل لأدائها، فالقاسم المشترك بين الأطراف المكونة للحديث هي المسؤولية. وأولو الأمر ليسوا رجال السياسة فقط بل رجال العلم أيضا لأن الهدف هو الحفاظ على مصلحة المسلمين ورعاية أمور الناس : "والله لو ان عقال شاة ضاع في أقاصي الغرب لخشي عمران يسأل عنه يوم القيامة"

وهذه المهمة قد يقوم بها الرجل وقد تقوم بها المرأة الكفو سيما وقد كان لها دور مشرف في منصب الزعامة والرئاسة فبلقيس ملكة سبأ حكمت بالشكل الديمقراطي الحديث القائم على الشورى، واقتنع رجالها بتفويض الأمر إليها فيما يتعلق بمصير أمة برمتها، ولم يعترض على قيادتها أحد بحجة تقاليد العرب آنذاك " ياأيها الملا افتوني في أمري ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون"⁶⁴ موقف يدل على حضارة عرب تلك الفترة الزمنية وارتفاع مستوى وعيهم السياسي والاجتماعي .

واستطاعت بحنكتها أن تكسب نبي الله سليمان وتجنب شعبها ويلات الحرب .

رساست جنوبيا إدارة دولة تدمر سياسيا وعسكريا بعد مقتل زوجها ووسعت رقعة بلادها، أهلتها لذلك قوة شخصيتها واحترام شعبها لها، والحفاظ على استقلال بلادها وحرية أهلها، رغم الصراعات المحلية

63- البخاري، صحيح البخاري ج 9 ص 111 عن ابن عمر.

64- سورة النمل الآية 32 .

والإقليمية مع الامبراطورية الفارسية والرومانية . وصفها المؤرخ الروماني "Ribilous" كانت زنوبيا أنبل ملكات الشرق قاطبة، وأجملهن أيضا، بيضاء البشرة مشوبة بالحمرة، لها عينا سودوان ولايثبت أمام لحظها الساحر الجذاب أعنى الرجال وأشدهم غلظة . وكان صوتها صافيا واضح النبرات، وان مال قليلا إلى جرس الرجولة " ويذكر أنها عاصرت كليوباترا الملكة المصرية وكانت بينهما مراسلات "

لقد كانت بحق ملكة اسطورية عربية الأصل وكانت تمسك باسمها العربي " زينب رغم اصرار المؤرخين على تسميتها زنوبيا !!!

القائدة العسكرية

يبدو أن الأحداث الدامية التي عاشتها الدولة الإسلامية بعد غياب مؤسسة النبوة كان الصراع فيها يجري حول إيجاد المؤسسة البديل واعتقدت السلطة أن الاتجاه نحو المركز هو الحل وذهب علي وعثمان ضحية هذه المحاولات. وقد عارض الفكر الصوفي الذي بدأ كينونته الجنينية زهدا مسلكيا عديميا في مجتمع كل شيء فيه يخضع لمنطق التطور والضرورة في أوج المدنية الإسلامية لأنها أساءت استعمال الدين كوسيلة لاضفاء الشرعية على السلطة الحاكمة ، واستنكر الظلم الاجتماعي والاستبداد.

وكان عبد الله بن عمر ضمن المسلمين البارزين الذين وقفوا من القتال موقف الرفض مع سعد بن مالك، سعد بن أبي وقاص، محمد بن سلمة الأنصاري، وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله⁶⁵ وكذا الصراعات السياسية التي دفعت إليه دون إبداء الرأي الصريح أو تحديد المسؤوليات وبقي رفضهم خارج المعركة، معتزلين كلا الفريقين زاهدين عن ممارسة الحياة العامة، ممتنعين عن محاربة علي والمخاربة معه " لا يحل قتال علي ولا القتال معه".

لا شك أن عائشة كانت تتابع التحولات التي يعيشها العالم الإسلامي منذ بيعة العقبة الأولى والثانية التي دشنت الدعوة المحمدية عبرها مرحلة الهجرة إلى المدينة، والشروع في تأسيس الدولة (بيعة القتال) والتي شاركت فيها المرأة مرورا بالمحطات الرئيسية التي كانت من ابداع المسلمين ذكورا وإناثا.

65- الحسن بن موسى التوبختي : فرقة الشيعة - استانبول 1931 طبعة هـ . جبر ص 5 .

لذا قررت ترتيب الأمور بينها وبين الناكثين عن طريق التكتل، وبينها وبين أمهات المؤمنين لتحقيق طموح المرأة السياسي الذي ظلت تدافع عنه بشكل فردي عن طريق المعارضة متى واتتها الفرصة، يؤكد مانرمي إليه المراسلات التي تمت بين عائشة وبقية أمهات المؤمنين، وتوضح الاستراتيجية التي رسمتها خصوصا اللواتي كانت لهن المبادرة في إطار الحياة الاجتماعية .

بدأت بأم سلمة لكونها من الراسخات في الإسلام والمدافعة الرئيسية عن قضية المرأة بمفهومنا المعاصر في مجتمع تميز بتبعيتها، فهي القائلة !

يارسول الله لا نسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء (أخرجه الحاكم) لينزل قوله تعالى : " فاستجاب لهم ربهم أني لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى "

وقالت كذلك : يارسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء. فاستجاب لها السماء : «إن المسلمين والمسلمات» (...) وكانت ترقب مجريات الأمور وتطور الأحداث والوقائع فتجاهد بما تراه أساسيا في استقامة الناس وعدم انحرافهم، خاصة أصحاب السلطان من الخلفاء والولاة. دخلت على عثمان أيام خلافته وحدثته قائلة : يا بني مالي أرى رعيتك عنك نافرين، وعن جنابك ناقرين، ولاتقف طريقا كان رسول الله يحبها، ولاتقتد بزند كان عليه السلام أكباه وتوخ حيث توخى صاحبك فإنهما ثكما الأمر ثكما ولم يظلما " هذا حق أمومتي قضيته إليك وإن عليك حق الطاعة .

قابلت عائشة أم سلمة فقالت لها : يا ابنة بني أمية أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله، وأنت كبيرة أمهات المؤمنين وكان رسول الله يقسم لنا من بيتك، وكان جبريل أكثر ما يكون في منزلك، فقالت أم سلمة لأمر ماقلت هذه المقالة.

أجابت عائشة : إن عبد الله أخبرني أن القوم استأبوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما، في شهر حرام، وقد عازمت على الخروج إلى البصرة ومعني الزبير وطلحة فاخرجني معنا، لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا فقالت أم سلمة : انك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه اخيب القول، وما كان اسمه عندك إلا نعثلا، وانك تعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله. ورغم تذكير أم سلمة لعائشة بمجموعة من الوقائع التي تثبت أن خروجها على علي معناه مخالفة رسول الله في صحبته له، وإقرار عائشة لكل ما ذكرتها به لم تكن عزمها .

وروي هشام بن محمد الكلبي في كتاب الجمل أن أم سلمة كتب إلى علي عليه السلام من مكة .

أما بعد فإن طلحة والزبير وأشباعهم أشياح الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم ابن الخزان عبد الله بن عامر بن كربز، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوما، وأنهم يطلبون بدمه، والله كافيهم بحوله وقوته، ولولا مانهانا الله عنه من الخروج وأمرنا به من لزوم البيوت، لم أَدع الخروج إليك والنصرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني عدل نفسي عمر بن أبي سلمة فاستوص به يأمر المؤمنين خيرا .

وكتبت إلى عائشة .

أنك جنة بين رسول الله وبين أمته، وأن الحجاب دونك لمضروب على حرمة، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيرك فلا تصحريها. لو ذكرتك قولة من رسول الله (ص) تعرفينها لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة. ما كنت قائلة لرسول الله لو لقيك ناصة ، فعودك من منهل إلى منهل ، قد تركت عهيداه وهتكت ستره. إن عمود الدين لا يقوم بالنساء، وصدعه لا يرأب بهن حماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض، اجعلي قاعدة بيتك قبرك حتى تلقينه وأنت على ذلك.

ما عرفني بنصحك، واقبلي لوعظك، وليس الأمر حيث تذهبين، ما أنا بعمية عن رأيك، فإن أقم ففي غير حرج، وإن أخرج ففي إصلاح بين فئتين من المسلمين.

وردت عليها أم سلمة :

إنك باب بين النبي (ص) وبين الناس، فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دخل على رسول الله وآله في حرمه وصورته واستبيح ماحماه، فلا تكوني أنت سبب ذلك بالخروج الذي لا يجب عليك فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك.

جواب عائشة يؤكد اقتناعها بمسؤوليتها وإيمانها بأن الفضيلة في الخروج لأن الشقاق يمكن أن يصلح بالنساء كما يجمع بالرجال وليس غريبا إلا تستجيب أم سلمة لعائشة لسببين

- الأول عامل السن فأما سلمة كانت قد تجاوزت الستين من عمرها.

- الثاني أنها لم تكن من حزبها بل كانت على رأس الحزب المناوئ لها. ففي حديث لعائشة عن حزب النساء إن حزبها كان يضم حفصة وسودة وصفية⁶⁶ والحزب الآخر كان يضم أم سلمة وبقية زوجات الرسول

وبعثت عائشة إلى حفصة تسألها الخروج معها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأثنى أخته فعزم عليها، فأقامت وحطت الرجال بعد ما همت، مما يؤكد أن ميل تلك الطبقة للزهد كان مرتبطا بالثورة على السلطة القائمة .

ومن مدينة كتب الاشراف عائشة بمكة .

أما بعد : فإنك ضعيعة رسول الله، وقد أمرك أن تقر في بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، فإن آيت إلا أن تأخذ منسائك وتلقي جلبابك، وتبدي للناس شعيراتك، فائتلك حتى اردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاء لك ربك.

وردت عليه الحميراء بلمجة حادة من جنس أسلوبه !

أما بعد فإنك أول العرب شب الفتنة ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم. وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه، ويكفينك الله وكل من أصبح مماثلا لك في ضلالك وغيك إن شاء الله .

ولما وصلت عائشة وطلحة والزيير إلى صفر أبي موسى بالقرب من البصرة، أرسل عثمان بن حنيف عامل علي على البصرة أبا الأسود الدثلي فدخل عليها وسألها عن سبب مجيئها فقالت : اطلب بدم عثمان قال : إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد قالت صدقت ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة، وجئت استنهض أهل البصرة لقتاله . انغضب لكم من سوط عثمان ولا تغضب لعثمان من سيوفكم. فقال لها : ما أنت من السوط والسيف، إنما أنت حبيب رسول الله، أمرك أن تقر في بيتك وتلقي كتاب ربك وليس على النساء قتال ، ولالهن الطلب بالدماء، وإن عليا لأولى منك وأمس رحما فإنهما ابنا عبد مناف، فقالت : لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه، أفتظن يا أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي قال : أما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد .

ولما نزل علي البصرة كتبت إلى زيد بن صوحان العبدي .

من عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين حبيبة حبيب الله إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد : فاقم في بيتك ، وخذل الناس عن علي عليه السلام وليبلغني
عنك ما أحب، فإنك أوثق أهلي عندي والسلام .

فرد عليها .

من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر.

أما بعد : فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر، أمرك أن تقر في بيتك،
وأمرنا أن نجاهد. وقد أتاني كتابك، فأمرتني أن أصنع خلاف ما أمرني الله
فأكون قد صنعت ما أمرك الله به، وصنعت ما أمرني الله به . فأمرك عندي
غير مطاع، وكتابك غير مجاب والسلام.

ولما تجهز الناس وأخذوا مصافهم للحرب، خطب طلحة والزبير
قائلين : جئناكم نطلب بدم عثمان ونجعل الأمر شورى بين المسلمين.
فارتفعت أصوات المؤيدين والمعارضين. وأقبلت عائشة على جملها فنادت
بصوت عال :

أيها الناس ، أقلوا الكلام واسكتوا فسكت الجميع (ثلاثة آلاف مقاتل)
ثم خطبت كزعيمة سياسية "أن أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ،
ثم لم يلبث يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوما تائباً. وإنما نقموا عليه
ضربه بالسوط، وتأميره الشبان وحمايته موضع الغمامة، فقتلوه محرماً
في حرمة الشهر وحرمة البلد ذبحاً كما يذبح الجمل !

ألا وأن قريشياً قد رمت غرضها بنبالها، وأدمت أفواهاها بأيديها،
ومانالت بقتلها إياه شيئاً، ولاسلكت به سبيلاً قاصداً. أما والله ما بلغ من
ذنب عثمان ما يستحل به دمه، مصتموه كما يماص الثوب الرخيص، ثم
عدو تم عليه، فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه . تراني أغضب لكم
في سوط عثمان ولسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ! ألا أن عثمان
قتل مظلوما .

وهي خطبة قائد محنك يستنهض الهمم لاختبة امرأة مطاعة نساء
متقلبة الرأي⁶⁷.

والتقى الجمعان، ووقف شجعان البصرة يلوذون بجمل البطلة حتى
لانتصاب بشر، والتفوا حوله يستقبلون الموت مستبشرين فرحين فرح المومن
بقضية، كلما قتل فريق عوض بفريق آخر والقائدة تدير المعركة وسط
الأراجيز الحماسية من فوق جملها، ولم تتوقف إلا بعد أن أمر علي الاشر
بعقر الجمل الذي اتخذه أصحابها قبله. قال محمد بن عمر الواقدي :
ما حفظ رجز قط أكثر من رجز قيل يوم الجمل أكثره لبني ضبة والازد الذين
كانوا حول الجمل يحامون عنه. ولقد كانت الرؤوس تبدو عن الكواهل،
والأيدي تطيح عن المعاصم، وأقتاب البطن تندلق من الأجواف، وهم حول
الجمل كالجراد الثابتة لاتتخلخل ولاتنزلزل حتى لقد صرخ علي كرم الله
وجهه بأعلى صوت : ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان، اعقروه وإلا فني
العرب، ولا يزال السيف قائما وراكما حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض،
فصمدوا له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد وكانت الهزيمة⁶⁸.

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ننازع الموت إذا الموت نزل

الموت عندنا أحلى من العسل لأغار في الموت إذا حان الأجل

ياأمننا عائش لاتراعي كل بنيك بطل مطاع

ياأمننا يكفي منا ذنوه لن يؤخذ الدهر الحطام عنه

لقد حملت كتب التاريخ والسير التبعة لعائشة وحدها وذهب البعض
إلى أنها ماخرجت للحرب، وإنما تعلق الناس بها وشكوا إليها ماوصلوا إليه

67 - عبد السلام ياسين تنوير المومنات ج 2 ص 216

68 - ابن أي الحديد شرح نهج البلاغة ج 1 ص 84 .

من عظيم الفتنة، وتهاجر الناس ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في أن يستحيى منها - وطلت هي كذلك فخرجت مقتدية بقولها : " لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس " أقوال لا يمكن تنفيذها بالنظر إلى الاستعدادات التي سبقت الواقعة، وعدد الجيوش المشاركة فيها والمراسلات التي تمت بين عائشة وبعض أمهات المؤمنين، وبينها وبين الطرف المناوئ الذي يحاول أصحابه اقناعها بشي عزمها، والاتصالات التي اجرتها مع رجال القبائل الذين اتوا للانضمام اليها خارج حدود المدينة... كل هذا يؤكد أنه رغم كونها مسموعة الكلمة لم تكن ممن يتوهمن أو يسقن كالقطيع، بل كانت مواقفها جريئة قياسا للمرحلة التاريخية حيث غياب المؤسسات الديمقراطية الحديثة : الدستور والمعارضة المنظمة والصحافة الحرة ... رغم ذلك كله قامت بدورها كقائدة عسكرية، بل كانت هي القائدة العليا الفعلية للجيش، تصدر الأوامر والنواهي وتعين الأمراء وتوجه الرسل بكتبها لختلف الجهات تصدرها بالعبارة التالية بعد البسملة .

من المرأة عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين حبيبة حبيب الله،

إلى ابنها الخالص فلان ،

وكيف تستسيغ اتخاذ موقف سلبي أو متهور وهي التي اقترن لديها الوعي الاجتماعي بالفاعلية الثقافية فكانت طيلة حياتها تحتج وتغضب وترفع الشكوى وتحرص على قول الحق كلما رأت ما يدعو إليه حتى مع النبي (ص)، قالت له مرة : أنت الذي تزعم أنك نبي الله ! ؟ فتبسم واحتمل ذلك كرما منه ⁶⁹ ثم أن خروجها على رأس الجيش كان بعد نزول الآية 53

69- أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الامثال عن عائشة.

من سورة الأحزاب وهي التي تأمر نساء النبي خاصة بالقرار في البيت " وقرن في بيوتكن " وخروجها لم يكن ناتجا عن جهلها لذا لم تراجع عن قرارها بعد نصيحة أم سلمة وتراجع حفصة، لأنها تعلم بل ترى أن عليها أن تتصرف ثم لماذا ينكر على عائشة ما لم ينكر على من سبقها ! لأنها أنثى وليس من حق الأنثى أن تعترض ! فبالأحرى ان تذهب بمعارضتها إلى ساحة الحرب. جريمة لا تغتفر في عرف الرجال. لقد كان أبو بكر وعمر أول من خالف عليا وابتززه حقه في الخلافة ولولا مخالفتهما له ما خالفته عائشة. فغياب علي عن اجتماع السقيفة الذي كانت تتنازع فيه السلطة لانشغاله بتجهيز رسول الله حيث احتجت قريش بأنه شجرته وأن الخلافة يجب أن تكون فيها يجعل عليا طبقا لهذا المنطق الاحق بها لأنه ليس من الشجرة فقط بل ثمرتها " احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة. »

واحتج وهو يبائع أبا بكر " أنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس وتكفرون عليهم حقه. أما والله لنحن أحق منك بالأمر مادام فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنة رسول الله المطلع بأمر الرعية، القاسم بينهم بالسوية " وأضاف " ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا⁷⁰ ".

الانشقاق الذي حدث في عهد خلافة علي فرضته طبيعة المرحلة. وخروج عائشة على رأس الجيش كان سيحدث ولو لم يكن علي هو الخليفة. إذ لم يكن هدفها ريب رسول الله كما يخيل، بل احقاق الحق الذي هو جزء من النشاط السياسي القوي للمرأة المسلمة في السنوات الأولى للإسلام، وقبلها سجلت المعارضة لعمر بن الخطاب وهو يقنن المهر أمام الناس في المسجد تيسيرا لزوج الشباب وأقرها عمر على مبدئها " أصابت امرأة وأخطأ عمر "

70 - ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج 1 ص 160

تولى علي الخلافة وسط صراعات عنيفة بعد ما حبل بينه وبينها ثلاث مرات متتالية. ولما أتت إليه بعد انتظار طويل كانت المرحلة تتطلب الحذر في التصرف والكياسة في استعمار السلطة تمثيا مع الجوهر الديني للمجتمع الذي طفا على السطح، إلا أن عليا تصرف معتمدا على التقوى والاخلاص والوعظ والإرشاد لا اعتمادا على الحنكة السياسية : لم يعتمد على تكتيك ولا وضع استراتيجية معينة ... وهي عملية ملازمة لكل عمل سياسي أو قيادي. لم يفرز المؤيدين والمعارضين، الأعداء والأقل عدواة، ولم يفكر في تصفية الأجنحة الخطيرة التي تهدده ليتمكن من تطبيق خطته السياسية. فضمن جيشه كان من هدفه الحقيقي خلق الشاز وإثارة الفتنة وهم الذين استنفروا جيش القائدة .

وهي عملية اعتمد عليها الرسول (ص) كسياسي، ولولاها ما استطاع توحيد الكتلة الإسلامية في المدينة : تجار قريش المكيين وملاكي ومزارعي الاوس والخزرج البثريين. ولولا اعتماده على عملية الاستخبارات المنظمة، والتجسس على الأعداء في الداخل والخارج، واستخدام المال استخداما سياسيا لادينيا، واستمالة ذوي النفوذ لتدعيم سياسته بتمكينهم من بعض المكاسب، (المغانم) والمؤلفة قلوبهم، وتصفية بعض المعارضين دون تردد، مستعملا السلطة لخدمة النظام الجديد الذي رسمه، لما نجح في تبليغ الرسالة، أهله حنكته وعبقريته. فحين يقع الصراع بين علي ومعاوية يؤثر الهزيمة مع التقوى والاخلاص على الانتصار بالمكر والخداع. قال له عمه ابن عباس " خادعهم فالخرب خدعة فأجابه : "والله لأبيع ديني بدنياهم أبدا" والغريب في أمر علي أنه لم ينهج سياسة الرسول (ص) وقد عايشه طيلة حياته تقريبا، ولا سياسة عمر بن الخطاب الذين فهما أن الإسلام نفسه لم يكن سوى ثورة وكفاحا لتغيير وضع معين !!

الخاتمة

المعركة المشجب

ظلت معركة الجمل التي هزم فيها الجيش الذي تقوده القائدة التي لم تغادر أرض البصرة إلا بعد أن سارت على قدميها وسط أرض المعركة وشاهدت أشلاء قتلاها، مقتنعة بما قامت به كزعيمة، بمثابة مشجب علقت عليه جميع النقائص والعيوب التي ألحقت بالمرأة، وجعل الكثير من المهتمين هذه الواقعة منبعا لنسج المرويات التي تقلل من شأنها وعدم قدرتها على القيادة وتحمل المسؤولية. وألبسها رجال الفقه مسحة القداسة وأولوها تأويلات تخدم مصالحهم كعادتهم في تحريف الحوادث التاريخية التي لا تتفق ومذهبهم. ولاغربة في ذلك فما كتبه مؤرخو الحياة الإسلامية كانت توجهه الاعتبارات السياسية" إذ كانوا يؤرخون في الحياة الإسلامية للخلفاء والولاة والحكام والقادة والفتوح والمعارك وكل ما يتعلق بأخبار الساسة المدبرين شؤون العامة⁷¹.

ولم تعد صفحات التاريخ تذكر عائشة منذ هذه الحادثة التي كانت نقطة سوداء في مسيرة المرأة إلى يومنا هذا، واكتفت بذكر لزومها البيت إلى أن ماتت سنة 57 هـ مع أن هذا الاحتمال يبقى بعيد التصديق في حق من ظلت منذ شبابها تناضل وتشارك في الحياة العامة بجزئياتها فهي عند الشيعة في قرن واحد مع معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ويزيد ومع

71- أمين الحولي تقديم تراجم سيدات بيت النبوة لعائشة عبد الرحمان. باب مكينة . رواه ابن أبي شيبه.

سائر بني أمية، مع أنها ماقتلت صالحا ولا فرضت بيعة على الأمة بالسيف ولا اقتت الدور والقصور والغلمان والجواري !!

ومنهم من جعل أبا بكرة من المعصومين حين قال :

لقد نفعتني الله بكلمة أيام الجمل : لما بلغ النبي (ص) أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " .

وسئل مانعك أن تقاتل مع أهل البصرة يوم الجمل فقال يخرج قوم هلكي لا يفلحون تقودهم امرأة في الجنة ⁷² " .

وسبق لعمر بن الخطاب أن جلد له الجرم القذف حينما شهد في قصة المغيرة بن شعبة مع أم جميل لما كان واليا على البصرة في خلافة عمر .

روي الشعبي عن مسلم عن أبي بكرة عن أبيه بكرة قال :

لما قدم طلحة والزبير البصرة تقلدت سيفي وأنا أريد نصرهما فد خلعت على عائشة وإذا هي تأمر وتنهي وإذا الأمر أمرها فذكرت حديثا كنت سمعته عن رسول الله " لن يفلح قوم تدبر أمرهم امرأة " فانصرفت واعتزلتهم.

القصة كما رواها محمد بن جرير الطبري وأبو الفرج علي بن الحسن الاصفهاني بتصرف كالتالي : كان المغيرة يختلف إلى أم جميل، امرأة من بني هلال بن عامر، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك يقال له الحجاج بن عبيد. وكان المغيرة وهو أمير البصرة يختلف إليها سرا، وكانت جارة لأبي بكرة. فبينما هو مع أخويه نافع وزيد ورجل آخر يسمى شبل بن معبد، وكانت غرفة جارته محادية لغرفته، ضربت الريح باب المرأة ففتحت، فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة ينكحها. فقال أبو بكرة هذه بلية قد ابتليت بها،

72 - رواه ابن أبي شيبة

فنظروا حتى تثبتوا فنزل أبو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة فقال له : أنه قد كان من أمرك ما قد علمت، فاعتزلنا. فذهب المغيرة وجاء ليصلي بالناس الظهر فمنعه أبو بكرة وقال : والله لاتصلي وقد فعلت مانعت وقال للناس : دعوه فليصل فإنه الأمير واكتبوا إلى عمر فكتبوا إليه. فورد كتابه أن يقدموا عليه جميعا : المغيرة والشهود. فارسل عمر إلى أبي موسى الأشعري قائلا له . إني باعثك إلى الأرض التي قد باض بها الشيطان وفرخ، فالزم تعرف ، ولانستبد فيستبد الله بك .

فجلس له عمر ودعاه به وبالشهود، وتقدم أبو بكرة فقال له : رأيته بين فخذيهما، قال : نعم والله لكانني انظر شريح جذري بفخذيها، فقال عمر : لا والله حتى تشهد لقدرأيته يلج فيها كما يلج المروء في المكحلة. قال : نعم أشهد على ذلك. فقال عمر ذهب ربك. ثم دنا نافع فقال علام تشهد. قال : على مثل شهادة أبي بكرة فقال عمر : لا حتى تشهد أنك رأيته يلج فيها ولوج المروء في المكحلة، فقال : نعم، حتى بلغ قذذه فقال ذهب نصفك. ثم دنا الثالث وهو شبل بن معد وقال علام تشهد، فقال : على مثل شهادة صاحبي قال : ذهب ثلاثة أرباعك.

ولم يكن زياد حاضرا ذلك المجلس فأمر عمر أن ينحى الشهود الثلاث ولا يجالسهم أحد من أهل المدينة. وانتظر قدوم زياد. فلما قدم سأله عمر، فترقت عيناه واحمر وجهه وقال : ياأمير المؤمنين أما أن أحق ماحق القوم فليس عندي، لكني رأيت مجلسا قبيحا وسمعت نفسا حثينا وانتهار. ورأيت متبطنا، فقال عمر : رأيته يدخل ويخرج كالميل في المكحلة. قال : لا فقال عمر للمغيرة قم إليهم فاضربهم فضرب المغيرة أبا بكرة ثمانين، وضرب الباقيين، ودرأ عمر الحد على المغيرة فكان أبو بكرة وهو يضرب يقول : أشهد أن المغيرة زنى، فهم عمر بضربه فقال له علي : أن ضربته رجمت صاحبك إذ تصبح شهادته شهادتين فيوجب ذلك الرجم على المغيرة.

إذا كان عمر قد برأ المغيرة من جريمة الزنى وجلده بجرم القذف، واعتبره من الصحابة، وترد له في كتب الصحاح والسنن أحاديث كثيرة فلماذا لم تعتبر أحاديثه باطلة وغير صحيحة على رأسها هذا الذي يقصى المرأة من المجتمع ومن تولي المناصب القيادية. كما أن الحديث نفسه والمناسبة التي قيل فيها تجعله لا يصلح كقاعدة تشريعية من حيث المتن، فأبو حنيفة من الأئمة الذين ينظرون إلى متن الحديث فيرون إذا كان شادا أيا كان رواته يقول ابن القيم الجوزية إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه حديث موضوع" 73 .

وهذا الحديث أتى على صيغ مختلفة

"لن يفلح قوم زسندوا أمرهم امرأة" 74

في رواية ابن الاشر

ماأفلح قوم قيمهم امرأة 75

كنز العمال

لا يقدر الله أمة فادتهم امرأة 76

في رواية الشيخ الطوسي

لا يفلح قوم وليتهم امرأة 77

73 - ابن القيم الجوزية المنار ص 37 - 38

74 - مسند الإمام أحمد ج 5 ص 38

75 - النهاية ج 4 ص 135

76 - كنز العمال ج 6 ص 40

77 - الخلاص ج 3 ص 311

وفي صيغة أخرى يقال (ص)

إن قوما، يخرجون من بعدي في فئة رأسها امرأة لا يقلحون أبدا⁷⁸ مايدل على ضعف هذا الحديث وروده بروايات وصيغ مختلفة، وبالتالي فمتنه لا يخلو من الكذب. وثبت أنه ليس في تاريخ الفرس مايدل على أنهم ولوا عليهم ابنة كسرى ولا أية امرأة أخرى⁷⁹ كما أنه روي في ظرف دقيق وحساس إبان معركة قادتها امرأة ضد علي بن أبي طالب مما لا يترك مجالا للشك، أن المراد به هو حبس المرأة عن الحياة العامة وهو ماحدث بالفعل في الدولة الأموية حيث أجبرت على الاختفاء والانزواء في دهاليز البيوت مكتفية بدراسة العلوم الدينية إن كانت من المحظوظات، في عزلة تامة عن المجتمع. ولاشك أن الداهية معاوية تيقن من موقف عائشة الخطير فقاومه بإسداد الستار على المرأة حتى لا تبرز .

78- رواه ابن شعبة : ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج 2 ص 81

79- ابراهيم فوزي : تدوي السنة ص 247 . رياض الريس للكتاب والنشر ط 2 1995

الفهرس

I

5	مقدمة
---	-------	-------

II

21	جسر الخطيئة (أسطورة الضلع)
----	-------	------------------------------

III

21	نكاح البعولة (المرأة كموضوع جنسي)
----	-------	-------------------------------------

IV

39	المرأة في الخيال الثقافي العربي
----	-------	---------------------------------

42	- الأمثال مصايح الكلم
----	-------	-----------------------

49	- المرأة من خلال الأمثال الشعبية
----	-------	----------------------------------

V

69	شهرزاد وأنهار دماء شهريار
----	-------	---------------------------

VI

79	جنسوية اللغة
----	-------	--------------

VII

85	عميدة المناضلات
----	-------	-----------------

96	- صراع المصالح والتهافت على السلطة
----	-------	------------------------------------

- 104 - الناكثان بين الأموال والمغانم والحكم
- 112 - ذات الجمل الأحمر
- 126 - القائدة العسكرية
- 137 - الخاتمة - المعركة المشجب

المراجع

كتب

1 العربية

- ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة، دار النشر الحديثة .
- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بيروت دار الكتب العلمية .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين ، بيروت دار الفكر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كشف آثار الجاحظ، الرسائل الكلامية، دار ومكتبة الهلال .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام جـ 1 .
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين ، الأغاني .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، بيروت دار الكتب العلمية 1978 جـ 8 .
- د. محمد عمارة ، نظرة جديدة إلى التراث، دار فتية 1988 .
- د. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي 1994 .
- د. إبراهيم فوزي ، تدوين السنة ، رياض الريس للكتب والنشر ط 2 1996 .
- د. زكي نجيب محمود، في حياتنا العقلية، دار الشروق 1974 .
- د. محمد إسماعيل سوسيلوجيا الفكر الإسلامي، محاولة تنظيم ، دار الثقافة المغرب 1980 .
- د. الجابري محمد عابد ، العقل السياسي العربي، المركز الثقافي العربي ط 2 / 1991 .
- المسعودي أبو الحسين علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر .
- أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ج 1 .

- تركي علي الربيعوا ، العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، المركز الثقافي العربي 1944 .
- د . خليل أحمد خليل ، نحو سوسيولوجيا للثقافة الشعبية.
- أحمد قبيش ، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ، بيروت دار الجيل .
- ذ . ياسين النضير ، قراءة في الحكاية الشعبية ، ألف ليلة وليلة.
- هشام شرابي ، مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، الأهلية للنشر والتوزيع .
- ذ . عبد السلام ياسين ، تنوير المومنان ج 1 و ج 2 ، منشورات الأفق.
- علي بن أبي طالب ، نظرة عصرية جديدة ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر 1974 .
- بوعلي ياسين ، التالوث المحرم ، دار الطليعة بيروت .
- د . هيثم مناع ، المرأة في الإسلام ، دار الحداثة 1980 .
- محسن جاسم الموسوي ، ألف ليلة وليلة ونظرة الأدب الإنجليزي .
- د . نقولا زيادة ، عربيات حضارة ولغة، رياض الريس للكتب والنشر 1994 .
- علي مروة ، طرائف النساء والجواري ، رياض الريس للكتب والنشر ج 5 .
- الميداني ، مجمع الأمثال .
- الإمام حمزة بن الحسن الأصبهاني ، الدرر الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق وتقديم عبد المجيد قطامش .
- د . محمد عمارة مسلمون ثوار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- د . علي أفرار ، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلمي، بيروت 1996.
- ذ . علي عثمان ، المرأة العربية عبر التاريخ دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط 2 / 1976 .

الدوريات

- التراث الشعبي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية عدد 2 سنة 11 / 1980 .
- التراث الشعبي ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية عدد 3 سنة 12 / 1983 .
- مجلة اتحاد كتاب المغرب، الثقافة الشعبية، قراءة في أشكال التعبير عدد 55 سنة 1994 .
- مجلة أمل ، حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب، عدد مزدوج 13 و 14 سنة 1998 .

الأجنبية :

- Zakiya Daoud : Féminisme et Politique au Maghreb., edition Eddif 1993 (Maroc)
- Dalenda et Abdelhamid Largueche : Marginales en terre d'Islam, Ceres productions 1992 (Tunis)
- Bouhdiba Abdelwahab, La Suxualité en Islam? Paris , PUF 1975.

صدر للكاتبة

- الإسلام والمرأة واقع وآفاق ، أفريقيا الشرق ، 1992
الإسلام والحجاب بين عصر الحريم وتحديات الحضارة ،
أفريقيا الشرق ، 1994
الإسلام والمرأة واقع وآفاق ، طبعة ثانية أفريقيا الشرق ، 1998
المرأة بين الميثولوجيا والحداثة ، أفريقيا الشرق ، 1998

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعلنا من عباده العاقلين

والذين هم على الهدى والذين هم على صراط مستقيم

والذين هم على صراط مستقيم

المرأة بين الميثولوجيا والحداثة

هل المرأة الرعيمة، الحاكمة النائرة، المناضلة الباحثة، تنتمي للتاريخ الحديث؟ إذا كان الجواب بالنفي فلماذا لم تتحدد بعد على الخريطة كشخص له كيان...؟ رغم أن علاقتها بالعمل السياسي والأدبي والاجتماعي عرفت قبل الإسلام وبعده؟

فالمرأة العربية اليوم تهتم بقضايا مجتمعها السياسية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية ونشارك بفعالية في العمل الاجتماعي، وحجم تواجدها في إيقاع الحياة أكبر، وسيرها نحو التحرر والمساواة ملحوظ، لكن عملها النضالي وتواجدها الفعلي لم يمتد بعد إلى جميع المساحات (...) ولم تتمكن من تأسيس الصلة على قواعد جديدة مع القاعدة العريضة للنساء، ودخول العمل السياسي من باب كقوة منظمة ضاغطة بل ترضى بولوجها "كضيفة" من كوات معينة بمواصفات وضوابط معينة، وعدد محدود (...) لتجيد نفسها في مرحلة الممارسة عاجزة عن الفعل واتخاذ القرار... مما يوضح تعثر حركتها التحررية التي يجب أن تستمد مصداقيتها من خلال قوة نسائية منظمة واعية وضاغطة قادرة على تشكيل الواقع وتنظيمه، بابتكار صيغ حضارية بناءة، عوض الاعتماد على نماذج مستوردة من نضال المرأة في الغرب الرأسمالي الامبريالي مثل اقتصاد بلدها المتخلف (...) مما يجعل مسيرتها تفتقد إلى الجذور، وكل ما يفتقد جذوره يكون عرضة للاندثار والتشتت عند أول هبة ريح. لا أقصد بالجذور أوهام الخصوصية والهوية الثقافية، فالعصر عصر عولة والانغلاق على الذات لا يجدي...!

11-25-112-7

ال



5280000129375

لوحة الغلاف للفنان

Redon-vers 1904 - الحلم -

9 789981 251120

ردمك